الفصـــل الاول

قيام دولة الموحـــدين وتوسعها نحو الشرق

١ ــ ابن تومرت : مؤسس دولة الموحدين •

٢ ــ قيـــام دولة المـــوحـــدين •

٣ ــ الاجهاز على دولة المرابطين •

٤ ــ توسع دولة الموحدين نحو الشرق •

الفصـــــل الاول

قيام دولة الموحدين وتوسعها نحـــو الشرق

(١)

ابن تومرت : مـؤسس دولـة الموحـــدين

أ ــ حول رحلة المهدى الى الشرق الاسلامى :

من عجيب المصادفات أن تبدأ الصفحة الاولى من تاريخ دولـــة الموحدين برحلة مشرقية يقوم بها مؤسس هذه الدولة الى المشرق الاسلامى طلبا للعلم على شيوخه فى المراكز العلمية المختلفة ، وأخبار هذه الرحلة لم يسجلها البيذق فى جملة ما سجله من أخبار المهدى ، فاللاسف الشديد يبدأ البيذق أخباره عن المهدى منذ وصوله الى تونس فى طريق عودته الى بلده فى أقصى السويس .

والواقع أن الخيوط الاولى لحركة محمد بن تومرت [1] الثورية تبدأ

---

(١) للتعريف بالمهدى محمد بن تومرت ، راجع المصادر والمراجـــع التالية : البيذق ، أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، الرباط ، ١٩٧١ ، ص ١١ وما بعدها . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، بيـروت ١٩٧٧ ، ص ٤٥ ــ ٥٥ . عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبـار المغرب ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٧٨ــ١٧٩ . ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ج ٦ ، ص ٣٦٢ ، ٤٦٤ــ٤٦٥ . على ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، الرباط ١٩٧٣ ، ص ١٧٢ــ١٧٣ . ليفـــى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة د . السيد عبد العـزيـز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٦٥ . د . السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٧٧٠ . عبـد الله جنون ، مدخل الى تاريخ المغرب ، تطوان ، ١٩٥٥ ، ص ٤٨ .

— Rachid Bourouiba, Ibn Tumart, S.N.E.D. Alger, 1974, p. 17—18.

مع بدء رحلته ثم بدأت تتخذ طابعها الثورى منذ وطئت قدماه فى طريق العودة الى وطنه أرض أفريقية • وفى هذه الاثناء يسجل البيذق الخطوط الاولية للمقولة الدينية المهدوية ، ويربط البيذق بين ذلك وبين أول ردود فعل فى المغرب الادنى لهذه الافكار ، ويركز على تكاثر طلاب العلم وعامة الناس حول مجالسه وهنا يظهر أسم الرجل الثانى فى تاريخ الدعوة الموحدية واعنى به عبد المؤمن بن على سراج الموحدين [٢] ، وباهتداء المهدى اليه تتخذ دعوة ابن تومرت مسارا جديدا •

ويجدر القول بأن أخبار رحلة ابن تومرت متناثرة فيما يشبه الاقاصيص فى بطون المصادر التاريخية لدولة الموحدين • ومع ذلك ، فان مجرد تتبعها ربما يلقى مزيدا من الاضواء حول تطور فكرة الدعوة الموحدية منذ بداية احتكاك ابن تومرت بعلماء المشرق الى أن تفجرت فى نهاية الرحلة باسم (المهدية الموحدية) فى ديار المرابطين بالمغرب الاقصى •

وكان محمد بن تومرت قد عرج قبل شروعه فى الرحلة المشرقية الى جزيرة الاندلس سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) ربما ليأخذ نصيبه من علومها المزدهرة ويسمع على شيوخها البارزين • وفى قرطبة التى كانت ما تزال تحتفظ بمكانتها العلمية السامية فى عصر دولة المرابطين [٣] ، قرأ ابن تومرت على يد القاضى ابن حمدين [٤] • ومن قرطبة انتقل فقيه السوس الى ثغر

---

(٢) التقى به المهدى فى بجاية وأخذ عبد المؤمن بنصيحته التى وجهها اليه بقوله : « ان العلم الذى يريد اقتباسه بالمشرق قد أتاه بالمغرب » . البيذق ص ١٦ .

(٣) د . عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٩٢ — ٣١٨ .

(٤) عن القاضى أحمد بن محمد بن حمدين الذى ولى قضاء قرطبة : سنتى ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، انظر : التكملة لابن الآبار ، ص ٣٨ ، ابن سعيد المغربى،

المرية [٥] حيث أقام بعض الوقت ليبحر منها الى المهدية ، ولا نشك فى أنه احتك أثناء مقامه فى هذا الثغر ببعض شيوخه فقد كانت المرية فى هـــذا العصر من مراكز العلم فى الاندلس • وفى المهدية أخذ عن الامام أبى عبد الله المازدى [٦] ، ومن المهدية انتقل بحرا الى مدينة الاسكندريـــة حيث درس على يد فقيه الاندلس أبى بكر الطرطوشى [٧] • ومن الاسكندريـــة خرج قاصدا الحجاز لاداء فريضة الحج ، وعرج منها الى بغداد ـــ حاضرة الخلافة العباسية ومركز العلم والثقافة الاسلامية لا سيما فى العلـــوم الكلامية التى كان يميل اليها ابن تومرت [٨] • وفى هذه الحاضرة العباسية

المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د . شوقى ضيف ، طبعة ثالثة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٦١ .

(٥) راجع عن مدينة المرية : د . سالم ، المرية قاعدة الاسطـــول الاسلامى فى الاندلس ، مجلة الرابطة ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢١—٢٧ ، ٧٨ . انظر ايضا عنها فى د . سالم ، د . أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحريـــة الاسلامية فى حوض البحر الابيض المتوسط ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ١٧٨ — ١٨١ .

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى نسبة الى مـــازر بصقلية (٤٥٣—٥٣٦ هـ / ١٠٦١—١١٤١ م) وهو المعروف بالامام المازرى ، توفى بالمهدية ودفن بالمنستير (انظر : المقرى ، أزهار الرياض ، القاهرة ج٣ ، ص ١٦٥ —١٦٦ ، ابن فرحون . الديباج المذهب ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ ، ص ٢٧٩—٢٨١) .

(٧) هو الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف ابن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشى الاندلسى نزيل الاسكندرية المعروف بابن أبى رندقة ولد فى بلدة طرطوشة بالاندلس سنة ٤٥١ هـ حيث تلقى علومه ، ثم رحل الى المشرق سنة ٤٨٦ هـ فحج ، استقر به المقام فى الاسكندرية ، توفى سنة ٥٢٠ أو ٥٢٥ هـ . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاســـلامى ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٢٢—٢٢٤ .

(٨) عن زيارته للاسكندرية فى رحلة الذهاب والاياب والآراء فيهـــا ، انظر : ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة د . عبدالعزيز سالم ، ص ٢٧٤—٢٧٦ انظر ايضا :

— Rachid Bourouiba, Op. Cit., pp. 13—23.

كانت تدور حلقات الامام ابى حامد الغزالى ومجالسه العلمية ، ولا نشك فى أن ابن تومرت شهد بعض هذه المجالس وأنه قابل الامام الغزالىولازمه ويشك بعض المؤرخين فى حدوث هذا اللقاء [٩] • بينما يؤكده آخـرون فابن ابى دينار يؤكد وقوع اللقاء فى قوله : « انه لازم الغزالى ثـلاث سنين » [١٠] • كما يؤكده ابن خلكان ويوافقه السلاوى فى قوله : (اجتمع محمد بن تومرت بأبى حامد الغزالى والكيا الهراسى ، والطرطـوشى وغيرهم) [١١] • بينما يلقى ابن خلدون ظلالا من الشك على حدوثـه فى قوله : (لقى فيما زعموا أبا حامد الغزالى وفاوضه بذات صدره) [١٢] •

وفى رواية ابن أبى زرع تفصيل عن هذا اللقاء ، ويتمثل ذلك فى قوله: (•• فكان أبو حامد اذا دخل عليه المهدى يتأمله ويختبر أحواله الظاهرة والباطنةفاذا خرجعنه يقول لجلسائه : (لابدلهذا البربرى من دولة ••)[١٣] ونقل بعض الاصدقاء هذا الخبر لابن تومرت بأن ذلك مكتوب عند الشيخ ، فظل ابن تومرت فى خدمة الامام أبى حامد الغزالى حتى أطلعه عليه •

ويذكر المؤرخون [١٤] أن ابن تومرت اطلع على ذلك فى الكتـاب

---

(٩) عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، ص ١٦١ حيث يروى قصة اللقاء ونقدها وبالتالى نفيها ، انظر ايضا : د . سالم ، المغـرب الكبير ، ص ٧٧٠ .

(١٠) ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، تحقيق : محمد شمام ، ص ١١١ .

(١١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٤٦ . السلاوى ، الاستقصا ج ٢ ، ص ٧٨—٧٩ . ويضيف صاحب الحلل الموشية ان اهم شيوخ ابـن تومرت فى مصر : الامام أبى الوليد الطرطوشى ، وفى الشام أبى عبد اللـه الحضرى ، وبغداد أبى حامد الغزالى ص ٨٥.

(١٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ط بيروت ، ص ٤٦٦.

(١٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٧٢ .

(١٤) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٨ ، السلاوى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨١،٩٧ .

المسمى « كتاب الجفر » ، وهو من علوم أهل البيت ورؤاهم المستقبلية ، وفيه ما يشير الى عودة الامامة للاسلام فى شخص الامام المهدى المنتظر وأن الامام يتمثل فى صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكان يسمى السوس من ذرية رسول الله ﷺ ، يدعو الى الله ، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ى ن م ن ل وأن استقامة ذلك الامر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ؛ ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة • فأيقن ابن تومرت أنه القائم بهذا الامر وأن أوانه قد أزف • فما كان يمر بموضع الا ويسأل عن صاحبه ؛ ولا يرى أحدا الا أخذ اسمه وتفقد هيأته (١٥) •

ويتمثل فى الروايات المذكورة عن لقاء ابن تومرت بالغزالى وتذيل خاتمة هذا اللقاء بخبر الامام المنتظر الوارد فى كتاب الجفر ، الخيط الاول فى نشأة فكرة الخلافة الموحدية • ومثل هذا الخيط وخبره لا يحتاج الى تأكيد وقوعه من قبل فى الفكر الصوفى المغربى ، وفى كتابات سبق للمغاربة الوقوف عليها لا سيما فى كتاب « الفتوحات المكية » لمحيى الدين بن عربى وأهمية الخبر لا تقف عند حد اطلاع ابن تومرت على القصة الواردة فى كتاب الجفر وانما تتعداه الى لقائه مع الامام الغزالى نفسه والوصول بالرواية الى خاتمة مرسومة استهدفها ابن تومرت وهى انفراده بالاطلاع على الكتاب وروايته على يد الغزالى وفى حضوره فيكون قد حصل من

---

(١٥) الجفر هو مابلغ أربعة أشهر من أولاد الماعز وكان القدامى يكتبون على جلود أولاد الماعز ويسمونها جفورا ، وكان الروافض يكتبون فى الجلود لقلة الورق . انظر : محمد بن محمد الاندلسى الوزير السراج ، الحلل السندسية فى الاخبار التونسية ، تحقيق وتقديم : محمد الحبيب الهيلة ، ج ١ ، تونس ، ١٩٧٠ ، ص ٩٧٨. السلاوى ، المصدر السابق ، ص ٩٨.

أكبر أئمة الاسلام فى الشرق على التفويض اللازم لاعلان امامته ومهدويته فى المغرب الاسلامى (١٦) .

ب ـ أوضاع المشرق الاسلامى :

استمرت رحلة ابن تومرت فى المشرق الاسلامى زهاء عشر سنوات تنقل خلالها بين مراكزه العلمية وأفاد من احتكاكه بشيوخه المشارقه كثيرا من العلوم الدينية واللغوية لا سيما الدراسات الكلامية التى كانت محظورة فى المغرب والاندلس زمن المرابطين اذ كانوا يعتبرونها ضربا من الالحاد وطريقا تؤدى الى الكفر وهذا ماحدا بهم الى احراق كتب الغزالى وبالذات احياء علوم الدين لاحتوائه على كثير من المسائل الكلامية ، وعندما قرر العودة الى بلاده ، ترك المشرق فى صورة تكاد تنطق بالدعوة الى تجديد الخلافة العباسية التى وهنت وأنتهت والخلافة الفاطمية التى مزقتها الانقسامات المذهبية والتنازع الداخلى . فالخلافة الفاطمية فى مصر ، بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله (١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) ، تعرضت لهزات عنيفة نتيجة الانقسام السياسى والمذهبى الحاد داخل كيانها المصدع ، ولا شك أن ابن تومرت عايش هذه الفترة وعاين أحداثها ووقف على حالة الوهن والضعف والانحلال التى أصابت العالم الاسلامى المشرقى سواء فى الخلافة العباسية أم الفاطمية . ففى مصر الفاطمية تعددت الانقسامات المذهبية

---

(١٦) كان ابن تومرت يتقرب الى الغزالى واتفق ان بلغ الامام الغزالى فى احدى الجلسات العلمية التى كان يقيمها ماقام به الامير على بن يوسف بن تاشمين من احراق كتبه والتهديد بالعقاب الشديد لمن يوجد لديه هذه الكتب فعلق على ذلك بقوله : « ليذهبن عن ظليل ملكه ، وليقتلن ولده ، ما أحسب المتولى ذلك الا حاضرا مجلسنا » فقال له ابن تومرت « على يدى يا سيدى » فقال له : « على يديك » . انظر : المراكشى ، المعجب ، ص ١٠٧ ، ابن القنفذ ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٠ .

الى نرارية ومستعلية والى طيبية وحافظيـــة ، وانعكس ذلك كلـه فى الاضطرابات العنيفة التى سادت البلاد (١٧) .

واذا كان ذلك هو حال الخلافة الفاطمية التى وقف ابن تومرت على أحداثها ، فان أحداث الخلافة العباسية التى عايشها فى بغداد لم تكـن صورتها الكئيبة أقل من أحداث الخلافة الفاطمية مع ارهاصات احتضار الخلافة العباسية التى هوت بالفعل أمام الغزوة المغولية البربرية الغاشمة بعد ما يقرب من قرن ونصف من الزمان .

أما المغرب فالحالة الفكرية فيه لم تكن أفضـل منها فى المشرق ، فالمرابطون قد هبطوا فى نظره الى هوة التخلف الفكرى وجمدت أفكـارهم عند طريقة السلف التى أصبحوا يسيرون عليها تقليدا دون أن يدركـوا أغوارها وأعماقها ادراك السلف الصالح لها مما لا يحميهم من مظنـة التجسيم لذات الله سبحانه وتعالى ، فحرموا دراسة علم الكلام المـذى يتصدى لتأويل المتشابه من الآيات القرآنية ، وهم على هذا الاساس فى نظر ابن تومرت الذى تأثر بأفكار المعتزلة كفرة ملاحدة ومجسمـة (١٨) ، وهكذا خرج ابن تومرت من رحلته آسفا ومتحسرا على ما أصاب الاسلام فى الشرق والمغرب من التخلف الفكرى العقائدى فى الغرب ومن التحلل السياسى والاجتماعى فى الشرق .

---

(١٧) جمال الدين الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ج ١ ، ص ٩٠ ، ٩٤—٩٥ ، ١٢٠—١٢٢ ، ١٥٢—١٥٤ . انظر ايضا : عبد المنعم ماجد ، السجلات المستنصرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٤٣ ، ١٤٥—١٥١ . محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ٦٥—١٩٦٦ ، ص ١١٨—١٢٠ ، ١٢٧—١٢٨ ، ١٣٠—١٣١ .

(١٨) عبد الله على علام ، الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمـن بن على القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٥١ وما يليها .

وتحتدم نفسه بالثورة على تلك الاوضاع السيئة وسرعان ما يفصح عما يعتمل بنفسه فى موسم الحج بمكة عندما يقف خطيبا ويعلن تجريحه للاوضاع الفاطمية الفاسدة التى أرهقت الاسلام وأذهبت هيبته ويحمل على الفاطميين حملة شعواء ويندد بالمناقشات اللجوفاء التى كانت تعقد بين السنة والشيعة .

جـ ــ رحلة العودة الى المغرب والتقائه بعبد المؤمن فى ملالة :

وفى أعقاب هذه الوقفة ، خرج ابن تومرت مطرودا من الحجاز فوصل الى مصر . وفى قاهرة الفاطميين ، بدأ دعوته الى « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » فتطارده السلطات الفاطمية فيمضى الى الاسكندرية تمهيدا لنفيه خارج البلاد . وفى رحلة العودة الى المغرب على ظهر سفينة بحرية أرست به فى تونس سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) أو سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ويشير المؤرخون الى رحلته البحرية الى المغرب فيذكر ابن خلدون نزوله بطرابلس فى حين يجعلها ابن الاثير الهدية أما عبد الواحد المراكشى فيجعلها بجاية . وأيا ما كان الامر فقد نزل ابن تومرت فى تونس ، وواصل السفر منها الى المغرب . وكان فى كل مدينة يدخلها ينصب نفسه آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر حتى كان يسبب الضيق لولاتها ، فيضطرون الى نفيه أو يؤذونه بسبب ذلك . ويذكر المراكشى فى المعجب قصته مع ركاب السفينة من الاسكندرية فيقول : « .. وجرت له وقائع فى معنى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر أفضت الى أن نفاه متولى الاسكندرية من البلاد ، فركب البحر ، فبلغنى أنه أستمر على عادته فى السفينة من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الى أن ألقاه أهل السفينة فى البحر ، فأقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة ولم يصبه شىء . فلما رأوا ذلك من

أمره ، أنزلوا اليه من أخذه من البحر ، وعظم فى صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له الى أن نزل من بلاد المغرب بجاية » (١٩) .

ولم أقف على ما يفيد بشىء تفصيلى عن أخبار ابن تومرت فى زيارته المشار اليها الى طرابلس أو المهدية ذلك لانه لم يتبق من المصدر الرئيسى لاخبار رحلة ابن تومرت الى المشرق ، وهو المخاص بالبيذق ، غير القطعة التى تبدأ بذكر أخباره فى تونس . ومن هذه الاخبار القصة الخاصة بالصلاة على اليهودى بأعتبارها نموذجا للمناسبات التى كان يستثمرها ابن تومرت لترديد دعوته بالامر بالمعروف . ففى القصة أن الناس رفضوا الصلاة على الجنازة المارة ولما سأل قالوا له : « .. هو يهودى وكان يصلى فقال لهم : « رضى الله عنه أفيكم من يشهد له بالصلاة ؟ » فرد الناس بالايجاب من كل مكان ، فقال لهم : « قد شهدتم له بالايمان » ، ثم أمر من يقيم الصفوف وصلى عليه والناس من ورائه . ولما انتهى من الصلاة دعا الفقهاء ووبخهم وعرفهم بالسنة ، فقالوا له بعد أن عرفوا الحق « جهلنا يافقيه » (٢٠) .

ونلمح فى هذه القصة وغيرها من الاخبار القصصية المتعلقة بابن تومرت فى المشرق وخبر تزايد طلبته فى تونس واقبالهم على دعوته وقوله بأن العلم يأتيه فى المغرب وليس فى المشرق ، الثمرة الاولى التى خرج بها من دروس رحلته المشرقية ، وهى أن « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر»

---

(١٩) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٩ . راجع فى ذلك ، د . سالم ، المهدى بن تومرت ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٧٠ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٦٦ .

(٢٠) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ١٢ ، د . سعد زغلول ، محمد بن تومرت ، ص ١٧ .

لم يعد بين مايهم رجال الحكم فى الخلافة الاسلامية فى الشرق الذيـــن أنكروا أيضا على ابن تومرت أفكاره الثورية • بينما وجد فى تونس بشائر الاستجابة اليها ، فتوسم أن نعم هذه البشائر سائر المغرب • ومـــن ثم فقد انتقل بعد رحيله من تونس الى طور جديد من دعوته وهو ما تشهـــد عليه أخباره فى قسنطينة [٢١] حيث انكب على تعليم أهلها كيفية تطبيـــق الشرع فى الاحكام لا سيما فيما شاهده بنفسه من قضايا [٢٢] ، ومـــــع استمراره فى تعليم تلاميذه الذين أخذوا يزدادون يوما بعد يوم وقدأعجبهم سعة علمه فى دائرة دعوته التوحيدية وسحر بيانه وعمق تأثيره فى الدرس وقدرته على الاقناع بالحجج وبراعته فى اجتذاب المريدين الذين تبين لهم أن فقهاء المغرب الجامدين دفعوهم الى التجسيم والكفر •

ثم رحل من قسنطينة ، الى بجاية [٢٣] حاضرة بنى حماد الصنهاجيين وفيها نهى الرجال عن التزى بزى النساء ، وحث على عدم اختلاط النساء بالرجال فى الصلاة • وفى هذا الصدد يروى أمير بجاية (العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس) لما رآه يفرقهم بعصاه قال له : « يا فقيه لا تأمـــر المسوقة بالمعروف وهم لايعرفونه ، فانى أخاف أن يأمروا فيك وتهلكهم ، لا يستوى حر كريم مع شيطان رجيم » ، فأغلظ له ابن تومرت ولاتباعه فى

---

(٢١) البيذق ، نفس المصدر ، تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٥٤ .

(٢٢) يورد البيذق قصة ابن تومرت عند سماعه أهل قسنطينة ينـــادون على جزاء الحلال (الحلال فى لغة المغرب القديمة بمعنى السارق) فقال : ليس عليه سياط بل القتل . ومرة أخرى المنادى على جزاء أهل السرقة ، فقـــال : تركتم الشرع ، انما يجب عليه قطع اليد ، وقال ان هذا الضرب يقوم مقام قطع اليد بجهلكم ، لانه لا يجوز جمع حدين فى ذنب واحد . وطلب من الســـــارق التوبة ، وعلمه شروطها (المصدر السابق) .

(٢٣) الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ص ٧ — ٩٧٨. ابن أبى زرع، القرطاس ، ص ١٧٣ .

القول فأنكر عليه الامير ذلك • فخرج ابن تومرت من بجاية خائفا الى قرية ملالة من قرى بجاية ، وفيها بنى له الطلبة مسجدا ، وكان مجلسه فى هذا المسجد قريبا من دار يرزيجن بن عمر المعروف بأبى محمد والذى سماه ابن تومرت ، عبد الواحد (وهو معروف عند الموحدين بالشرقى من أصحاب المهدى والمقربين اليه) [٢٤] •

أخذ ابن تومرت يدرس دعوته أياما فى حماية بنى وريا كل الصنهاجية الذين أجاروه وكان يجلس تحت شجرة خروب قريبا من ديار ملالة ويلتف حوله تلاميذه ، وتمضى الروايه فى اظهار قرب اعلان مهدويته ، فقد سمعه تلاميذه تحت الشجرة يقول : « •• الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالبا طوبا لمن عرفه وويل لمن أنكره » [٢٥] • فأخذتهم الدهشة فى أمره فمن يا ترى يكون هذا القادم ؟

ذلك هو عبد المؤمن بن على الكومى [٢٦] (خليفة المهدى) حسب رواية البيذق نفسه • وفى قصه هذا اللقاء الذى تم بين المهدى وخليفته ما يكمل خيوط أحداث رحلة ابن تومرت الى الشرق والعودة منه الى بلاد المغرب •

---

(٢٤) البيذق ، المصدر السابق ، ص ١٣ ، عنان ، دولة المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(٢٥) البيذق ، نفس المصدر ، ص ١٤ . أنظر أيضا ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٣—٧٧٤ .

(٢٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٤٦٧ . ابن خلكان ، وفيات ، ج ٣ ، ص ٢٢٧- ٢٤١ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، تحقيق د . عبد الهادى التازى ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٤١١١—٤١٣ . البيذق ، المصدر السابق ، ص ١٠—١٦ .

فقد ذكروا أن عبد المؤمن أقبل منذ صباه اقبالا شـــديدا على تلقى العلم فلما شب كان يتردد على جامـــع تلمسان للسماع وتلقى العلم على شيوخ عصره وفقهاء الحديث والتفسير ، فلما اتسع علمه تشوق الى الرحلة الى المشرق الاسلامى للتوسع فى الدراسات الدينية على نحو ماجرى عليه طلاب العلم فى بلاد المغرب فخرج بعد وفاة أبيه مع عم له يدعى يعلو الى بجاية ليركب من هناك سفينة الى الاسكندرية ، فوصل الى متيجة ومنهـــا الى بنى زلدوى فلما وصل الى بجاية نزل بمسجد الريحانة ، وفى هـــذا المسجد رأى الناس يتركون المسجد جماعات للاجتماع بالفقيه السوسى ، فسأل الناس عنه ، فذكروا له أنه عالم المشرق والمغرب وليس كمثله أحـــد من الناس • فطلب من عمه قصده بملالة ليسأله فى أحوال الديانـــــات والواجبات ويقص عليه مناماته (٢٧) • فما أن لمحه ابن تومرت حتى أسندناه منه وسأله عن اسمه وبلده وعرف منه أنه يقصد المشرق التماسا للعلم فرد عليه : « العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق قـــد وجـــدته بالمغرب » ، ورد عليه القول : « لا يقوم الامر الذى فيـــه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين » • فبكى عبد المؤمن لسماع ذلك ولشـــدة تأثره قال : « يافقيه ماكنت فى شىء من هذا ، انما أنا رجل أريد مايطهرنى مـــن ذنوبى » •فقال له المعصوم (ابن تومرت) : « انما تطهرك من ذنوبـــك صلاح الدنيا على يديك » واستطرد فقال : « طوبى لاقوام كنت أنـــت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم ، أكثر من ذكر الله يبارك الله لك فى عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر » (٢٨) •

---

(٢٧) البيذق ، نفسه ، ص ١٧ . راجع قول المهدى لعبد المؤمـــن فى الاستقصا ، السلاوى ، ج ٢ ، ص ٨١.

(٢٨) البيذق ، نفسه ، ص ١٦—١٧ .

وعلى هذا النحو نجح ابن تومرت فى اثناء عزم عبد المؤمن عن الرحلة الى المشرق فى طلب العلم وعزم هذا على ملازمته فى السراء والضـــراء وتفانى فى الاخلاص له .

وتدل قصة هذا اللقاء على أمر جديد يهمنا فى تتبع تطور دعوة ابـــن تومرت عبر رحلته ، لا يتعلق بخبر سبق اليه المهدى فى التأكيد على طلبته بأن العلم يأتى فى المغرب وليس فى المشرق ، بقدر ما يتعلق بأن طلبته من المغاربة فى رحلة العودة قد ألفوا الفوج الاول من صحابته المهاجرين معه على طريق اعلان مهدويته . وكان دخوله فاس بصحبة سبعة من أتباعـــه أو صبيانه على حد قوله [٢٩] . وفى فاس أمر صبيانه أو تلاميذه باستخدام القوة فى النهى عن المنكر حيث خلب منهم قطع مقارع من شجر التيـــن المغروس بأسفل الوادى لتكسير أدوات اللهو المتى بالحوانيت [٣٠] . ولما شكا أربابها الى ابن معيشة قاضى المدينة لم ينصفهم على أساس أن ذلك وجده الفقيه فى السنة والا ما فعله . ومثل هذا العمل العنيف ، لم يسبق اليه ابن تومرت فيما ذكر من أخبار أطوار دعوته عبر رحلته الشرقيـــة ، ومنها تلك المتعلقة بأخبار انتقاله الى تلمسان ووجدة . وكان من أمـــره فى تلك الاخبار عزوفه عن مواجهة المخالفين بنظير مثلما حدث مع الجماعـــة التى صادفها فى دشر قلال [٣١] الى دخوله فاس عندما ردوا علـــى بعض

---

(٢٩) هم : عبد المؤمن بن على وعبد الواحد الونشريسى والحاج عبـــد الرحمن والحاج يوسف الدكالى والبيذق وعمر بن على ، وعبد الحق بن عبـــد الله . (راجع البيذق ، ص ٦٤) .

(٣٠) كانت الحوانيت فى فاس مليئة بالدفوف والقراقر والمزامير والعيدان وجميع ادوات اللهو (البيذق ، ص ٦٥) .

(٣١) دشر قلال هى اليوم المعروفة بعين بوقلال الواقعة بتراب قبيلـــة مكناسة على الطريق بين تازة الى أكنول . البيذق ، نفسه ، ص ٢٢ .

رجاله : « معروفنا ومعروفكم عندكم ، سيروا والا نمثل بكم وبفقيكم » ، فقال ابن تومرت : « سيروا عنهم لئلا يصيبهم بلاء فيصيبنا معهم » (٣٢)

د ــ صدى رحلته فى المغرب :

على طريق العودة من المشرق الاسلامى ، اقتصر عدد الاصحـــاب الذين رافقوا ابن تومرت على سبعة نفر الذى جاء ذكر بعضهم على لسان البيذق فى قوله : « .. فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كما كنا أول القدوم : سيدنا المعصوم رضى الله عنه . ويوسف الدكالى ، والحاج عبد الرحمان ، وعبدكم الفقير المؤلف لهاذا أبو بكر بن على الصنهاجى المكنـا بالبيذق » (٣٣) . وفى شوط الرحلة من تونس الى فاس ، زاد على صحبه الثلاثة الاوائل ثلاثة آخرون هم : عبد الواحـد الونشريسى وابنه عبـد المؤمن بن على الكومى . وبالتالى تفسر هذه الاخبار واقتصار صحابتـه على هذا العدد المحدود مادامت دعوته لم تلق الاستجابة المنشودة ســن ابناء الخاصة كما أسلفنا القول خاصة قول أمير بجاية (٣٤)

ويستفاد من المقولة الاولى للبيذق عن اصحابة الثلاثة الاوائـل أن رحلة ابن‌تومرت كانت يمكن أن تقف عند نتيجة واحدة هى تلك التى تتعلق بزيارة الشرق فى اطار الزيارات التقليديه التى نهج عليها المغاربه عبـر تاريخهم بهدف الحج أو الاستزادة من علوم الشرق والاتصال بمعارفـه وأحوانه . فعاد ابن تومرت من المشرق الاسلامى فى صحبة اصحابـه الثلاثة الذين بدأوا معه الرحلة ثم انضاف اليهم الثلاثة الجدد من المغاربة

---

(٣٢) البيذق ، نفسه ، ص ١٢ .
(٣٣) البيذق ، نفسه ، ص ٢٢ .
(٣٤) أنظر : البيذق ، أخبار المهدى ، ص ١٣ ، عنان ، دولة المرابطيـن والموحدين ، ج ٢ ، ص ١٦٥ــ١٦٦ .

العائدين من رحلاتهم الى الشرق أو القاطعين لها أخذا بنصيحة ابن تومرت وعن طبيعة الدعوة التى وجهها المهدى للناس فى أثناء رحلته المذكورة ، لم يشر البيذق الى دعوة أبعد من مخاطبة السوقة بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر — وهى الدعوة التى رددها بعض أيضا عن أخباره بالحواضر المشرقية والتى انحسر تأثيرها الاول الى مجرد اخراجه من الحاضرة حسبما أفاد البيذق نفسه فى مقولته الثانية المذكورة أعلاه .

ووضح من أخبار الرحلة أيضا أن طبيعة هذه الدعوة قد جعلت مرحال ابن تومرت بين الحواضر الاسلامية يتم فى سلام أو على حد قول البيذق « فى أمن من الله »[٣٥] ، بالرغم من عدم رضا الحكام أمثال « العزيز » صاحب بجاية على أسلوب ابن تومرت فى مخاطبة « السوقة » . ومع ذلك ، تبقى لمقولة « العلم الذى يريد اقتباسه بالمشرق قد أتاه بالمغرب » ذلك المعنى الذى يتعدى بالدعوة من الوعظ الدينى فى أمور حياة السوقة المعادية الى تلك الثورة التى فجرها ضد المرابطين بعد عودته والتى من أجلها قطع صحبه الثلاثة الجدد رحلتهم الى الشرق وأجمعوا « على السير نحو المغرب فى صحبته »[٣٦] .

وأفادت أبحاث الدكتور أحمد مختار العبادى بوجود العديد من أنصار الدعوة التومرتية فى البلدان المشرقية — حسبما يرد بالتفصيل فيما بعد[٣٧] . وأعتقد أن أعداد هؤلاء قد تكاثرت فى كل مرحلة من مراحل

---

(٣٥) البيذق : نفسه ص ١٢ .
(٣٦) البيذق : نفسه ، ص ١٧ .
(٣٧) انظر : د . مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ١١٢—١١٣ ، البيذق : نفسه ، ص ٢٨—٢٩ .

رحلة ابن تومرت فى طريق عودته الى المغرب نتيجة للاخبار التى ترددت أصداؤها فى أرض المغرب عن فقيه السوس العالم المقنع ، الداعى الى الحق ، الذى تصدى للامراء والعلماء والحكام وفاقهم ببلاغة وسحر مقولته .

عن هذه الاخبار ، أفادت قصة دخول فاس أن قاضيها « عبد الحق بن عبد الله بن معيشة المغرناطى » لم يذهب كما ذهب غيره فى النحواضر المشرقية الى الاعتراض على طريقة ابن تومرت فى النهى عن المنكر . بل أفادت القصة أيضا بأن سكوت ماضى فاس عن أسلوب العنف الذى نزع اليه ابن تومرت فى حادث اللهو النحوانيت يعنى أن الفقيه القاضى قد مال الى آراء ابن تومرت أو تأثر بها . ومن الاخبار فى رحلته الى مراكش أن دعوته أخذت تؤتى ثمارها بالفعل فتكاثر أنصاره فى مكناس وخميس منزارة (٣٨) ، ورحبت القبائل به وأنصاره (٣٩) .

وعندما حل بمراكش قاعدة دولة المرابطين ومقر أميرهم ومركز علمائهم أيقن بقرب الصدام المحتوم مع هؤلاء الفقهاء الذين يمقتون علم الكلام ويرمون أصحابه بالكفر ، فأقام وأصحابه فى مسجد صومعة الملوب وظل مقيما به قرابة أسبوع حتى كان يوم الجمعه التالية حيث دخل مسجد على بن يوسف ، فألفاه جالسا على غفارة ابن نيزمت والوزراء واقفون .

---

(٣٨) هى مدينة الخميسات حاليا ، تقع فى منتصف الطريق بين فاس والرباط .

(٣٩) من الروايات فى هذا الصدد أن القبائل اعترضته اثناء عبوره وصحبه نهر أم الربيع حيث طلبت منه دفع الضرائب حسب عدد الرؤوس من أجل المرور . فخاطبها بالبربرية قائلا : « آو مورن ملو لينن ان سوس آداون ناك » أى أن السبيل للمسلمين وانتم تقطعونها ، وهذا غير جائز فى الشرع ، فتركوهم لحال سبيلهم ، البيذق ، نفسه ، ص ٢٦ .

فقال له الوزراء ود الخلافة على الامير [٤٠] ، فقال لهم : « وأين الامير ؟ انى أرى جوارى منقبات » . لما سمع ذلك على بن يوسف حط النقاب عن وجهه وقال لهم صدق [٤١] . فلما رآه ابن تومرت قال له : « الخلافة لله ولبست لك ياعلى بن يوسف » . ثم قال له : « ياعلى قم عن هذه المغيرة تكون أمام عدل ، ولا تقعد على هذه الغفارة المغيرة ، فأزالها وأعطاها لمولاها . وقال له : وما تغيرها؟قال له ابن تومرت «لأنها تقعد بالنجاسة» [٤٢] ثم خرج من المسجد ، ودخل مع الفقهاء للمذاكرة حتى قهرهم [٤٣] .

وتنتهى رحلة ابن تومرت المشرقية الى تلك القصة التى تقدمت أخبار صدامه المباشر بالامير المرابطى على بن يوسف وفقهاء المرابطين . وبهذا تكاد تنطمس عقدة علقت بفكر ابن تومرت من رحلته المشرقية عن أوضاع « السوقة » من عموم المسلمين والمشارقة بوجه خاص ، أو انعقدت بفعل موقف عليه من الاحوال السيئة فى المشرق الاسلامى وفى امارتى بنى يزيرى وبنى حماد بالمغربين الادنى والاوسط .

ويبقى من الرحلة المشرقية صداها الذى تناقلته ألسنة الحجيج المغاربة بين حواضر المشرق ، وتنوقلت فى حواضر المغرب وبواديه . وتتمثل هذه الاصداء فى انتشار أتباع الموحدين فى مدن مصر حسبما سيرد الذكر.

---

(٤٠) المقصود بكلمة ود هى أداء الواجبات والتشريفات للامير ، وهى كلمة عامية لازالت مستعملة فى المغرب الى الان .

(٤١) سمى ابن تومرت المرابطين بالملثمين نظرا لخروج المرأة سافرة الوجه ويضع الرجال اللثام . راجع قصته مع أخت على بن يوسف وتقريعه لها . ابن خلكان ، وفيات ، ج ٥ ، ص ٤٩ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٤٢) البيذق ، نفسه ، ص ٢٧ .

(٤٣) البيذق ، نفسه ، ص ٦٧ .

ومثل هذا الاثر من البديهيات المفترضة فى سياق ما يردده الحجاج المغاربة عن أنباء من تخلف منهم فى المشرق • ولا جدال فى أن ما سبق من أخبار ابن تومرت الى المغرب تحمل فى طياتها التفسير المنطقى للقول السابق ذكره عن تكاثر أنصاره فى الشوط الاخير من رحلة عودته الى حد أن قاضى فاس أخذ بآرائه بل الى حد امتناع الامير المرابطى على بن يوسف عن الاقدام على اجراء تأديبى يردع ابن تومرت عن تكرار تهجمه على شرعية امارته • ويمكننا على هذا النحو تفسير استمرار ابن تومرت فى دعوته الموحدية) بين أوساط المرابطين دون أى عقاب والى حد رفض الامير المرابطى الاخذ بنصيحة فقهاء مجلسه بالزج به فى السجن — حسبما سيرد القول عن بقية أخبار ما تبقى من رحلته — والقبول بمقولة مثالية جاءت على لسان أحد قواده وليست من مآثر دروس الحكم القوى فى تاريخ الامارة الاسلامية عموما والامارة المغربية على الخصوص •

أثر حياة ابن تومرت الاولى فى فكره :

عن حياة ابن تومرت الاولى ومؤثراتها ، جاء عن نسبه على لسان البيذق : هو « محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل ، بن حمزة بن عيسا ، بن عبيد الله بن ادريس ابن ادريس بن عبد الله ، بن حسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ »(٤٤) • وذكر ابن أبى زرع ادعاءه لنسبه النبوى فى شجرة بها بعض الاختلاف ورسم الشجرة العائلية المذكورة ، فقال : هو « محمد بن عبد الله المعروف بتومرت ابن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر ابن يحيا بن

---

(٤٤) البيذق ، المقتبس من كتاب الانساب فى معرفة الاصحاب ، الرباط، ١٩٧١ ، ص ١٢ ، انظر أيضا ابن خلكان ، وفيات ، ج ٥ ، ص ٤٦ .

— Rachid Bourouiba, Ibn Tumart, p. 17.

عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن حمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم » . وأضاف ابن أبى زرع ما ذكره ابن القيس فى تاريخه بأنه : « هو رجل من هرغة من قبائل المساعدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغى وقيل أنه من كنفيسه »(٤٥) .

ويتحمس ابن خلدون فى اضافة النسب النبوى الى محمد بن تومرت على أساس ارتفاعه الى على بن ابى طالب عن طريق سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على ، وسليمان هذا هو أخو ادريس الاكبر الذى يقع نسب معظم بنيه فى المصامدة وأهل السوس (٤٦) . ويؤكد المراكشى فى المعجب هذا النسب النبوى الشريف بقوله : « .. له نسب متصل بالحسين بن على بن أبى طالب .. » (٤٧) .

ويميل عدد من المؤرخين الحديثين الى تجريد المهدى من نسبه النبوى الشريف وتأكيد انتمائه الى قبيلة هرغة من بطون المصامدة (٤٨) . ويأتى الاستاذ عبد الحميد العبادى برأى آخر فهو يعتقد أنه كان فى الاصل بن أحفاد اللمتونيين الادارسة الذين اندمجوا فى البربر ، وتخلقوا بأخلاقهم ، وتطبعوا بطباعهم ، فهو عربى الاصل ، بربرى الطباع

---

(٤٥) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ ، انظر أيضا :

— Rachid Bourouiba, Op. Cit., p. 14.

(٤٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ط دى سلان ، الجزائر ١٨٨١ ، ص ٤٦٥ ، علام ، الدولة الموحدية ، ص ٤٧ .

(٤٧) المراكشى ، المعجب ، ص ١٠٧ .

(٤٨) علام ، المرجع السابق ، ص ٤٧ . ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة الدكتور عبد العزيز سالم ، سلسلة الالف كتاب رقم ٨٩ ، ص ٢٦٥ .

— Henri Terrase, Histoire du Maroc, Casablanca, 1949, p. 202.

وانظر أيضا :

— Charles André Julien; Histoire du L'Afrique du Nord, Paris, 1955. p. 90—92.

والاخلاق [٤٩] . ومع التسليم بهذا الرأى الذى يجمع بين الاصل العربى والخلق البربرى لابن تومرت يمكن أن نتبين غلبة البيئة البربرية على الاصل العربى . وهذا الرجحان واضح من الاشارات المتناثرة عن سيرته من حيث القول عن مولده فى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩١ م) أو ٤٩١ هـ (١٠٩٥م) [٥٠] وعن أبيه (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) وعن قومه من قبيلة هرغة [٥١] ، المصامدة المعروفين باسم (السرغيين) [٥٢] أى الشرفاء فى لغة المصامدة.

وعلى الرغم من أن مصمودة كانت من أكبر القبائل البربرية عددا وأشدها بأسا الا أن والده كان فقيرا وكانت أمه من قوم يعرفون ببنى يوسف من مسكالة من عمالة السوس [٥٣] .

تلقب (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) بلقب تومرت الذى كان

---

(٤٩) عبد الحميد العبادى ، المجمل فى تاريخ الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٨٢ .

(٥٠) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ويذكرها فى ٤٩١ هـ ويثير حولها الخلاف ، ص ٤ ، انظر ايضا آراء ابن الخطيب ، أعلام الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٦٦ ، راجع فيها :

— Rachid Bourouiba, Op. Cit., p. 14.-

وفيها يناقش عملية تحديد مولد ابن تومرت عند ابن خلدون والزركشى وابن‌خلكان تفصيليا .

(٥١) هرغة قبيلة المهدى ، قبلية مصمودة أسمها البربرى أرغن ،مساكنها جنوبى وادى سوس الى الشرق من مدينة رودانة وتشمل فى الوقت الراهن على البطون التالية : بنى عثمان ، بنى تاموا دان ، آران والجرف (البيذق ، نفس المصدر ، ص ٣٣ .

(٥٢) المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ . انظر ايضا ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٦٩ .

(٥٣) السلاوى ، الاستقصا ، راجع تقسيمه لعمالات المغرب ، ج ١ ،ص ٧٢-٧٣ .

يتلقب به أبـــوه[٥٤] ، كما تلقب بـ (امفـــار) أى الشـــيخ فى لغـــــة البربر[٥٥] . وحمل فى صغره لقب أسافو أو أســـافور بمعنى الضياء لكثرة ما كان يسرجه من قناديل فى المساجد التى لازمها للعلم[٥٦] .

ولم تكشف المراجع التى بين أيدينا عن حياة محمد بن تومرت الاولى وتخلوا القطعة الباقية من أخبار المهدى للبيذق من هذا الجانب . وكـــل ما نعرفه عنه أنه ولد فى أقصى السوس فى قرية تومكران ، ويذكر عن هذا المكان أن « لا ماء فيه انما يشرب أهله من ماء المطر ، وأنه فى سفح جبـــل اجليز » [٥٧] . وكان أن انطبعت شخصيته بمعالم هذه البيئة فاتســـمت بصفات منها أنه (كان رجلا ربعة ، أسمر عظيم الهامة ، غائر العينين ،حديد النظر ، ضعيف اللعارضين) [٥٨] . ومن أصول صفاته البيئية أن يتحـــدث

---

(٥٤) يعرف البيذق معنى تومرت بقوله : « .. انه اسم لابيه عبد الله ، شهر فى صغره الى كبره بتومرت بن وجليد . ذلك لما ولد فرحت به أمه وسرت فقالت بالاسان الغربى « آتومرت آينو ايسك آيبوى » ومعناها : « يا فرحتى بك يابنى » . وكانت اذا سئلت عن أبنها وهو صغير تقول أيضا بنفس اللسان « يك ترمرت » ومعناها صار فرحا مسرورا . فغلب عليه أسم تومرت ، وترك دعاؤه باسم عبد الله الذى سمى به أولا . أنظر ، المقتبس من الانساب ، ص ٢٧ . (والمقصود هنا باللسان الغربى هو لغة اهـــل المغرب فى الغرب) . ويضيف رشيد برويبة Rachid Bourouiba

« أن والد ابن تومرت يسمى عبد الله وتلقب هو بتومرت بواسطة أخته حسب مانكره ابن القطان او بواسطة امه كما سبق أن ذكر ابيذق ويضيف ابن القطان أن « عبد الله عند مولده قد دثر فى تومارت اى معطف » ومن ثم تلقـــب بهذا الاسم . المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٥٥) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة د . سالم ص ٢٦٥ . عبد الله عنان ، عصر المرابطون والموحدون ، ج ٢ ، ص ١٥٨—١٦٩

(٥٦) ابن ابى زرع ، القرطاس ، ص ١٧٢ . راجع أيضا ، د . ســـعد زغلول ، محمد بن تومرت ، ص ١٣ .

(٥٧) — Marcel Peyrouton; Histoire General du Maghreb, Paris, 1966. p. 94.

(٥٨) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

بالبربرية أو حسب الاشارة السابقة عن أمه بـ (اللسان الغربى) وقد ذكر البيذق فى هذا الصدد أن ابن تومرت فى نهاية رحلة العودة من الشرق فى الطريق من فاس الى مراكش كان يخاطب القبائل البربرية [٥٩] وان ذلك كان مفاجأة لاصحاب ابن تومرت • هذه اشارة تعنى أن ابن تومرت كان لا يستخدم البربرية فى أحاديث رحلته المشرقية الا نادرا لميل منه الى تفضيل اللحديث فى هذه المرحلة من حياته بلغة القرآن ، وأن اقدامه فى المرحلة من رحلته على التحديث بالبربرية يعنى التسليم بالطابع الخاص لبيئة موطنه ومؤثراتها عليه •

ويردد السلاوى [٦٠] ما ذكره ابن عذارى عن أصول الثورة الفكرية فى بيئة ابن تومرت المغربية ، بقوله « كان له ناموس عظيم » • ويضيف أيضا ابن أبى زرع الى هذا القول أنه (كان عالما فقيها راويا للحديث عارفا بالاصول والجدل) [٦١] • وتؤكد مخطوطة « أقوال المهدى فى علم الكلام » [٦٢] ماسبق أن ذكره السلاوى •

وكان على ابن تومرت الذى ابتنى فكرة المهدية على أساس مزج ما كان يحمله من فكر الطرقيين الصوفيين فى المغرب [٦٣] قبل رحيله الى

---

(٥٩) انظر ما قاله البيذق بالبربرية ، أخبار المهدى ، ص ٢٦ .

(٦٠) السلاوى ، نفس المصدر .

(٦١) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٧٢ .

(٦٢) البيذق ، مخطوطة أقوال المهدى ابن تومرت فى علم الكلام ، دار الوثائق بالرباط ، ميكروفيلم رقم ١٠٥١ ، عن العلم واهميته وسنده بالاحاديث والقرآن ، أنظر ، ص ١—١٩ . وفى العقل والجائز والواجب والمستحيل والآراء حول تفسيرها ، أنظر ، ص ٤٨ . وعن الكلام فى المتواتر وما يتعلق به من فصول ، أنظر ، ص ٧٦ ، ٨٢—٨٤ .

(٦٣) رأى جورج مارسيه فى « الاعتقاد فى المهدى وفى عودة ظهوره من تقاليد البلاد . فمن بين أقاليم الاسلام ، يبدو أن المغرب كان هو الاقليم الذى

المشرق مع ما تلقاه من فكر الغزالى وأفكار المعتزلة والمتكلمين أثناء رحلته المشرقية ، كان عليه أن يواجه الجمود الواضح فى أفكار فقهاء المالكيـــة فى المغرب المرابطى حيث يتصدى ابن تاشفين لمحو تعاليم مالك وتتبع كل من يشتغل بالعلوم الكلامية وقصر التعليم على الفقه وحفظ القرآن والاعتماد على الفروع •

وفى حياة ابن تومرت الاولى نراه يتلقب بلقب أمغار (الشيـــخ) ويسبقه بلقب (اسماغو) بالاضافة الى ما أسبغه المؤرخون عليه من شرف الانتساب الى بيت الرسول ﷺ • ولم يخل الامر من الاشارة أيضـــا فى هذا الصدد الى الاصل العربى بالرغم من غلبة المؤثرات البربرية علـــى أصول أسرته ، وواقع التدنى المادى لهذه الاسرة ، فضلا عن انعـــزال موطنها فى قرية مجهولة من قرى جبل اجليز ، وهذا يعنى فى اجمال الحديث أن نظرية ما كانت قد تألفت عند ابن تومرت ومهدت له فكرته السياسيـــة التى تكونت لديه عن الدولة المهدوية الموحدية وذلك قبل أن يبدأ رحلتـــه المشرقية • كما يعنى نفس الحديث أن هذه النظرية كانت قد تأثرت أيضا بثورة الامير المرابطى على فقهاء علم الكلام وما صاحبها من ردود فعـــل مختلفة مست على نحو مباشر ما لديه من أفكار فقهية ، هذا وقد تضمنت هذه النظرية التى تألفت لديه الاشارة الى خليفة ابن تومرت عبد المؤمـــن

سيطرت فيه على الاذهان فكرة انتظار المهدى ولاسباب غامضة كانت منطقـــة السوس المكان الذى تبلورت حوله الآمال الملحة ، وحتى نهـــاية القـــرن ١٤م كان ما يزال ينتظر هناك » .

— Georges Maracis, La Barberie Musulmane et L'Orientan, M.Age 1946. pp. 259—60.

وقد رأى د . عباس الجرارى فى هذا الرأى مبالغة ربما نجمت عن الآثار التى تخلفت عن العصر الموحدى وظلت تراود بعض النفوس (الموحدون ثورة مذهبية ، مجلة المناهل ، الرباط ، ١٩٧٥ ، العدد الاول ص ١١٢) .

بن على فتذكر أن أمه رأت فى منامها وهى حامل به النار تخرج منها وتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، وأن تفسير ذلك حسبما قيل لهـــا أن مولودها هذا سيصبح شخصية لها شأنها وأنه سيضم المشرق والمغـــرب والقبلة والجوف (٦٤) • وأن هذه الشخصية ترتفع فى نسبها الى الرسول ﷺ ، فهو فى هذا النسب (عبد المؤمن بن على بن علوى بن يعلا بن الحسن بن كنونة بنت ادريس بن ادريس بن عبد الله بن القاسم بن محمـــد بن الحسن بن على بن أبى طالب) (٦٥) •

ويلى ذلك الحديث عن رحلتى المهدى وخليفته الى المشرق (٦٦) • والارجح أن الفكرة من وراء الرحلة المشرقية عند الرجلين تدخل فى اطار نفس النظرية المذكورة وتستكمل خيوطها الاخيرة • ولكن تبقى الاشارة الخاصة ببقاء ابن تومرت فى رحلته المشرقية مدة عشر سنوات ، والاشارة بعدول عبد المؤمن عن اتمام رحلته المشرقية ، وهما اشارتان يفسرهمـــا جزئيا القول بأن العلم يأتيه بالمغرب وليس من المشرق • ويكتمل هـــذا

---

(٦٤) البيذق • أخبار المهدى ، ص ١٧ . راجع قول المهدى فى عبدالمؤمن فى السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٦٥) أنكر ابن خلدون نسب عبد المؤمن العربى أصلا (العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٨) ويشاركه صاحب الحلل الموشية (ص ١١٧) وكذلك المراكشى (صاحب المعجب ، ص ١١٨) فى ذلك . والثابت أن عبد المؤمن ينتمى الى بطن من بطون قبيلة بنى عابد احدى قبائل كومية وهى قبيلة من جذم ضريسة من البربـــر البتر ، كانوا يعرفون قديما بصطفورة لهم ثلاثة بطون ومنها تفرعت قبائلهم : ندرومة وصخارة وبنى يلول . وموطنهم الاصلى جبال ترارة على ساحل البحر المتوسط شمال غرب تلمسان . ولد بتاجرا القريبة من مرسى هنين بجبـــال ترارة غربى وادى الفنا أو تافنا آخر عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٥ م (راجع فى ذلك : صالح باجية ، الاباضية بالجريد ، ص ١٦) . ولمزيد من التفاصيل عـــن نسب عبد المؤمن وقرابته أرجع الى : البيذق ، الانساب ، ص ١٣—٢٢ .

(٦٦) نفذ المهدى رحلته وعاد عند شروع عبد المؤمن فى رحلته الى المشرق فأثناه عن القيام بها وأقنعه بصحبته فهو صاحب الامر من بعده .

التفصيل بالربط بين نظرية ابن تومرت والمدة التى استغرقتها رحلته وتلك المقولة • ويستفاد من هذا الربط أن الفكرة السياسية للدولة الموحدية وجدت فى أحوال الخلافة الاسلامية بالمشرق ما يجسمها ويخرجها من اطارها النظرى فى فكر ابن تومرت ، وكان الاعتقاد أن هذه الاحوال خير ضمان للانتقال بالفكرة النظرية الى الثورة فى أرض المشرق ذاته ومنها الى المغرب ، وحيث أن ذلك لم يتحقق بين المشارقة بالرغم من سنوات اقامته الطويلة بينهم ، فقد عاد ابن تومرت ليجد فى المغرب ضالته المنشودة وبعبارة أخرى موجزة ، فانه بالعودة الى المغرب يعود صاحب الرحلة الى اعلان ثورته العارمة على الافكار الفقهية عند المرابطين ، وهى ثورة أضاف اليها بعد العودة من رصيد رحلته الشرقية ثورة أستاذه الغزالى على الخلافة الاسلامية عامة •

واستكمالا لنسج الخيوط الاولى لهذه الثورة ، يسجل المؤرخون ما وقع من مساجلة كلامية فى اللقاء بين الامير المرابطى (على بن يوسف) وابن تومرت بعد أن استفحل أمره • ومن هذه المساجلات رده على الامير المرابطى بأنه : « ••• رجل طالب آخره وليس بطالب دنيا ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وواجبه احياء السنة واماتة البدع » • ومن مساجلات هذا اللقاء أيضا مخاطبة ابن تومرت للامير المرابطى بقوله : « •• وقد أمر الله بتغييرها واحياء السنة بها ، اذ لك القدرة على ذلك ، وأنت المأخوذ به والمسئول عنه ، وقد عاب الله تعالى على قوم تركوا النهى عن المنكر •• » (٦٧) • وكذلك من الاخبار فى هذا الصدد مادار من جدل

---

(٦٧) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٧٤ ، المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٤ — ١٨٥ •

بين ابن تومرت وفقهاء المالكية فى حضور الامير المرابطى • فقد حدث أن أستقر رأى الامير المرابطى على جمع العلماء من كل صوب ليختبروا ابن تومرت ويقفوا على حقيقة أمره ، فان كان عالما حقا تبعوه وان كان جاهلا أدبوه على حد قول المراكشى صاحب المعجب (٦٨) • وكان على رأى المجتمعين من هؤلاء الفقهاء الفقيه مالك بن وهيب(٦٩) • وكان ان وجه ابن تومرت كلامه الى مالك قائلا : « أيها الفقيه أنت لسان الجماعة ، فأخبرنى هل تنحصر طرق العلم أم لا تنحصر ؟ فأجاب : تنحصر فى الكتاب والسنة والمعانى التى بنيت عليها » • فقال له المهدى : سألتك عن طرق العلم هل تنحصر أم لا ، فلم تذكر الا واحدة •• ومن شروط الجواب أن يطابق السؤال (٧٠) • واستطرادا لهذا الجدل المبنى على الاصول فى علم الكلام، ومن منطق ادراك ابن تومرت أن الفقهاء المجتمعين لمجادلته هم أصحاب حديث وفروع أساسا ، أستطرد فى مجادلة ابن وهيب فسأله عن أصول الحق والباطل ، وأظهر ابن وهيب عجزه عن الاجابة ، وأخذ ابن تومرت عندئذ فى توضيح أصول الحق والباطل مفيدا بأنها أربعة : العلم والجهل والشك والظن ، العلم للهداية والاخريات للضلال ، ثم كان استطراده فى بيان أسس وطرق العلم • وكان من الطبيعى أن يثور هؤلاء الفقهاء عليه ويوغروا عليه الامير على بن يوسف فيصفونه بأنه : « رجل خارجى

---

(٦٨) المراكشى ، نفس المصدر .

(٦٩) مالك بن وهيب الاشبيلى ، كان فقيها فيلسوفا مشاركا فى جميع العلوم ، الا انه كان لايظهر الا ماينفق فى ذلك الزمان ، وهو الفقه والعلوم الدينية التى كانت لتعاطيها سلطان على نفوس ملوك الدولة المرابطية (البيذق أخبار المهدى ، ص ٢٧) .

(٧٠) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٧٤—١٧٥ . وعن فشل هذه المناظرة انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٦ ، ص ٣٦٠ ، دائرة المعارف الاسلامية مجلد ٢ ، ص ٤٥١—٤٥٣ . علام ، الدولة الموحدية ، ص ٧٤—٧٥ .

مسعور ، أحمق صاحب جدل ولسان يضل جهال الناس ، وان بقى بالمدينة يفسد عقائد أهلها وينشر ذلك عند الناس حتى يرسخ ذلك فى قلوب أكثر العامة » (٧١) . ونصح بن وهيب الامير على بن يوسف بان يقضى عليه لانه هذا هو صاحب الدرهم المركن وهذه صفته ، وقال له : « اجعل عليه كبلا كى لا تسمع له طبلا » (٧٢) . فأمر على بن يوسف بسجنه ، ولكن اعترض على الامر القائد المرابطى يبنتان بن عمر ، وأقام اعتراضه على منطق السؤال عن (كيف يسجن رجل من رجال المسلمين وماذا يقال عن أمير المسلمين ؟) وتأثر على بن يوسف بهذا القول ، ومال الى الصفح عن ابن تومرت ولكنه أرجأ ذلك القرار حتى تتم المشاورة ، وفى هذه الاثناء اصطحب هذا القائد معه ابن تومرت الى داره حتى تمت المشاورة من على بن يوسف الذى قرر أن يتركه يخرج من مراكش (٧٣) .

وخرج ابن تومرت من حاضرة المرابطين الى الجبانة الواقعة فى طرف المدينة حيث نصب خيمته فتكاثر عليه الطلبة ، ووصل خبره من جديد الى الامير فطلبه ، ولكنه لم يمتثل لكلام رسول الامير من منطق أنه يقيم بين قبور الموتى وليس مع الاحياء . ومع ذلك فقد خاف ابن تومرت من

---

(٧١) البيذق ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٧٢) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، تحقيق ماضور ، ص ٥ . البيذق ، نفس المصدر .

(٧٣) هو قائد مرابطى كبير ، قاد غزوتهم الاولى ضد ابن تومرت وكانت له مواقف مشرفة مع الموحدين ، وراعوا ذلك بعفوهم عن بنتيه ميمونة وتامكونت مع نساء عديدات ، وعن ابنه عمر وسائر أبناء يبنتان عند فتح فاس ومراكش بسبب توصية المهدى لهم ، حتى أن ابنته ميمونة زوجة القائد يحيى بن مريم قائد حصن زاكورة من قبل المرابطين أبقاها عبد المؤمن بعد أسرها عام ٥٢٦هـ فى الجبل حتى افتدى بها كل من كان بتلمسان من أسرى الموحدين (البيذق ، المصدر السابق ، ص ٢٧) .

بطش الامير وآثر السلامة فخرج قاصدا أغمات [٧٤] . وفيها رسخت دعوته بين أهلها الى حد انقسامهم الى فرقتين (مؤمن وكافر) وبرز فيها عدد من طلبته [٧٥] الذين راعقوه فى رحلته الى منازل قبيلة هرغةوذلك فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢١ م) .

وفى هذه الرحلة من أغمات الى هرغة ، مر ابن تومرت وصحبه بعدد كبير من القرى ولم يتوقف اثناء سيره عن وعظ أهلها وارشادهم ، وكان يحث قتال من لا يقتنع بدعوته من هذه القبائل البربرية .

ثم تأهب ابن تومرت لاصدام المسلح مع المرابطين بعد أن تأكد من

---

(٧٤) تقع أغمات على بعد حوالى ٤٠ كلم جنوبى مراكش فى الطريق الذاهبة منها الى جبن وريكة . بها قريتان : اغمات هيلانة او أغمات ن ايلان ، والثانية أغمات وريكة الواقعة جنوبها ، بنتها قبيلة هوارة قبل الاسلام ، وبها مسجد بنى عام ٧٠٤ م ، وكانت قاعدة المذهب الخارجى بالمغرب ، ثم عادت الى مذهب أهل السنة فى عهد الادارسة ، وكانت من حظ عبد الله بن ادريس الثانى ، فصارت قاعدة لناحية مراكش ومقصد العلماء والادباء من الاندلس والقيروان . وفى سنة ١٠٥٨ م استولى عليها المرابطون وطردوا أميرها لقوط الزناتى زوج زينب النفزاوية التى صارت فيما بعد زوجة لابى بكر بن عمر اللمتونى ثم ليوسف بن تاشفين والى أغمات نفى المعتمد بن عياد وفيها توفى . ومن المعروف أن أغمات فقدت اهميتها بعد تأسيس مدينة مراكش واتخاذها حاضرة لدولة المرابطين ، ولم تلبث أن أصبحت مجرد قرية ولكنها بدأتتنعش الآن ببناء ضريح على قبر المعتمد بن عباد واتخاذها مقر جماعة قروية (البيذق، المصدر السابق ، ص ٢٩ وعبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج ١ ، الرباط ١٩٦٨ ، ص ١٢٣—١٢٤) .

(٧٥) على راس هؤلاء الطلبة : : سليمان بن البقال ومعروف بسليمان احضرى (من العشرة الذين بايعوا المهدى ، ومن الخمسين فى التنظيم الحربى للموحدين ، وكان كاتب رسائل المهدى الى مقتله فى معركة البحيرة سنة ٥٢٤هـ /١١٣٠م . واسماعيل آيكيك (معروف باسماعيل بن يسلالى الهزرجى من أهل العشرة ، قائد على هرغة ، تولى القضاء ، عقد البيعة لعبد المؤمن ، أنقذ المهدى من محاولة اغتياله ، فدى عبد المؤمن) البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٣٠- ٣١ .

القوة البشرية التى تؤيده وتسانده ، وطلب من المجتمعين معه أن « يعملوا آساراك [٧٦] كبير لان الخيل تصلكم » وأمرهم ببناء المذوالد [٧٧] وقال : « من عمل مذوادا أخذ فرسا ومن عمل اثنين أخذ اثنين ، ومن كذبنـــا حسبيه الله » [٧٨] .

وواضح من مواصلة استعداداته القتالية وتنظيماتها أنها كـــانت تستهدف أبعد من مجرد قتال المرابطين والتصدى لمحاولاتهم القضاء على تنظيم الدعوة التومرتية وهى فى مراحل النشأة . فهل كانت تستهـــدف تحقيق الغاية الاساسية التى قامت عليها الدعوة الموحدية بعد نضوجهـا وأصبح ذلك ضرورة لازمة لتحقيق الثورة المهدوية الشاملة المرتقبـــة للنهوض بالاسلام ورفع الخلافة الاسلامية وانتشالها من واقع التردى فى مشكلات التنافس على الامارة الاسلامية والخلاف (المذهبى) بين رجالها وأئمة فكره ؟ واذا كان الامر كذلك ، فماذا عن النشأة السياسية والحربية لهذه الرئاسة الموحدية وتطورها الى خلافة اسلامية عامة تسعى الـــى التوسع شرقا ؟

---

(٧٦) آساراك هى مربط الخيل بالبربرية .

(٧٧) مذود هى مأكل الدواب وموضع علفها . راجع فى ذلك ، البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٣٣ .

(٧٨) C. Julien, Histoire de L'Afrique, p. 53. H. Terrassé, La Barberie, p. 261.

(٢)

قيام دولـة الموحديـــن

أ ــ المهدى والدعوة الموحدية :

كان هروب المهدى من مراكش الى أغمات مؤشرا لبداية هجومه على المرابطين ؛ فقد أخذ يحمس طلابه ويعلمهم بقصده كما أخذ يطعـــن فى المرابطين ويصفهم بالكفرة المجسمين والزراجنة [٧٩] وأحل قتالهم اذ أن كل من يعلم أن الله واحد وجب عليه « غـزو الروم والمحـوس » • فتبعه أكثر من ألف وخمسمائة من تلامذته وأتباعه ، وجاءه طالب ينادى قـــرب خيمته « يا موسى أن الملا يأتمرون بك ليقتلونك فأخرج انى لك من الناصحين » وكرر ذلك ثلاث مرات • ولما سمع محمد بن تومرت النداء فطن له ، وقرر الخروج متخفيا مع بعض الصحابة حتى وصل الى تينملل [٨٠] فى شهـر شوال من عام ٥١٤ هـ / يناير ١١٢١ م ، وأقام حتى شهر رمضان من عام ٥١٥ هـ / نوفمبر ١١٢١ م عندما جهر بدعوته •

---

(٧٩) الزراجنة : جمع زرجان وهو طائر اسود البطن أبيض الـريش ، شبه المهدى بن تومرت المرابطين به لانه يرى انهم بيض الثياب سود القلوب ، كما سماهم المجسمين لانه الزمهم فى المذاكرة أن يقول بالتجسيم والمكان ،وكذلك سماهم الحشم للثامهم كما تفعل النساء المحتشمات (أنظر : ابن القطان ، نظم الجمان ، تحقيق د . مكى ، ص ٣٢ ــ البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٢٥ ، علام الدولة الموحدية ، ص ٧١ وتفسيره للشـام) .

(٨٠) يذكر البيذق أن تينملل قرية واقعة بتراب قبيلة كدمة (كـــدمت) الكندافية بطن فرغوسة على بعد ١ كلم من الطريق الذاهب من مراكش الـى رودانة ، اختارها المهدى لاقامته وبث دعوته لمناعتها ، وسرح منها أنصـاره لضرب المرابطين . وفيها دفن عام ٥٢٤ هـ وكذلك خليفته عبد المؤمن وابنـــه يوسف ، وحفيده يعقوب المنصور قرب المسجد والضريح اللذين أسسهما عبـد المؤمن ، وظلت المدينة أطلالا حتى قامت وزارة الاوقاف بترميم المسجـــد وأصلاحه . كتاب الانساب ، ص ٢٤ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٨٤ــ٨٥ .

وفى تينملل لحق به صحابته العشرة وهم الاوائل الذين سارعوا الى قبول دعوته والذين صدقوا امامته ، وأيدوا رئاسته وهم : عبد المؤمن بن على ، أبو أبراهيم وهو أسماعيل بن يسلالى الهزرجى المعروف عند الموحدين باسماعيل أيكيك ، عمر أصناك أو عمر بن على الصنهاجى ، عبد الواحد الشرقى ، أبو محمد عبد الله بن محسن الوانشريشى المكنى بالبشير أبو موسى الصودى أو عيسى الخلاسى الصودى ، أبو بكر بن على الصنهاجى المكنى بالبيذق ، وأبو محمد وسنار بن عبد الله ، أبو عثمان بن يخلف ، أبو يحيى بن يجيت (٨١) .

وبعد أن أطمأن ابن تومرت فى مقامه بتينملل أنشأ فى منتصف شهر رمضان من عام ٥١٥ هـ / نوفمبر ١١٢١ م ، رابطة للعبادة وزاد من عدد طلبته وأتباعه ، وبدأ يعلمهم مذهبه فى التوحيد الكلامى ، فطلب منهم عدم اتخاذ العنف من أجل نشر هذا التوحيد . وهذا التوحيد مؤلف باللغة البربرية (٨٢) ، ومن مؤلفاته أيضا القواعد والامانة وهى بالعربية والبربرية . ولفصاحته فى اللسانين ، سهل على ابن تومرت الشرح والتفسير واعطاء المواعظ وضرب الامثال ، فعجل ذلك اجتذاب قومه البربر اليه ، وتمهد أمامه السبيل لاعلان مهدويته وتفجير ثورة البربر على المالكية وأمارتها المرابطية .

---

(٨١) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٣٤—٣٥ .

(٨٢) يذكر صاحب الحلل الموشية انه : « الف لهم كتاب اسماه بالتوحيد بلسان البربرية وهو سبعة اجزاء عدد ايام الجمعة وأمرهم بقراءة جزء واحد منه كل يوم أثر صلاة الصبح بعد الفراغ من جزء القرآن وهو يحتوى على معرفة الله تعالى وسائر العقائد كالعلم وتحقيقه والقضاء والقدر والايمان بمايجب لله تعالى ، ومايستحيل عليه وما يجوز وما يجب على المسلم من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وواخى بينهم فيه . واضاف انه الف لهم كتابا سماه بالقواعد ، وآخر اسماه الامانة وهما مدونان بالعربية والبربرية » وذلك لسهولة فهمهما ولجذب القبائل البربرية الى جانبه (المصدر السابق ص ٨٩) .

وهكذا بدأ ابن تومرت قرب نهاية رحلته الشرقية وعند وصوله الى أغمات ، صدامه الفكرى بالمرابطين . فقد وضح من الاخبار الاولى لهذا الصدام أن الجانب الفكرى المذهبى قد شكل الاطار الظاهر لما وقع من أحداث بين الطرفين . وتجلى ذلك فى القالة النعتية التقليدية التى تنكر على المرابطين الايمان وتصفهم بالكفرة « الملثمين والزراجنة » .

ولم يلبث الخلاف المذهبى أن ازداد حدة وعمقا بسبب تأخر الصدام السياسى والعسكرى ، ومن ثم استمرار مجلسه العلمى فى الرابطة التى أنشأها فى تينملل وتكاثر الطلبة حول المجلس للاستماع الى آراء ابن تومرت فى المذهب المالكى وغيره من المذاهب وتلقى تعاليمه الاولى عن دعوة التوحيد . وكان من هذه التعاليم حسبما سبق الاشارة عدم اتخاذ العنف طريقا لنشر مبادىء هذه الدعوة ، وهو عامل هام من عوامل تأخير الصدام المذكور بينه وبين المرابطين ، بالاضافة الى أن سياسة هؤلاء المرابطين كانت تتعمد أغفال شأن الدعاة أمثال ابن تومرت لا سيما فى مناطقهم النائية

ونم اعلان ابن تومرت للمهدية فى رمضان عام ٥١٥ هـ / نوفمبر ١١٢١ م أى بعد نحو عام من استكمال رحلته الشرقية ، وذلك فى خطبته الشهيرة على طلبته فى تينملل حيث قال : « الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضى بما يشاء ، لا راد لامره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدى الذى يملا الارض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما . يبعثه الله اذا نسخ الحق بالباطل ، وأزيل العدل بالجور ، مكانه المغرب الاقصى ، وزمنه آخر الزمان ، وأسمه أسم للنبى عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم ، وقد ظهر جور الامراء ، وامتلات الارض بالفساد ، وهذا

آخر الزمان ، والاسم الاسم ، والنسب النسب ، والفعل الفعل » (٨٣) .
وهكذا تلقب ابن تومرت بالمهدى وصرح بدعوى العصمة لنفسه وانه المهدى المعصوم .

وكان الشق الثانى من هذا الحدث الكبير مبايعة العشرة من أصحابه فى رحلته الشرقية (٨٤) حيث التفوا حوله بمجرد فراغه من خطبته وبايعوه « وهم جلوس تحت شجرة خروب » على حد قول صاحب الحلل الذى روى تفاصيل هذه المبايعة فيما نصه : « قال الامام أبى يحيى ابن اليسع ، سمعت الخليفة عبد المؤمن يقول لما فرغ الامام المهدى من خطبته لبربر مراكش سنة ٥١٥ هـ من كلامه هذا بادر اليه عشرة رجال من أتباعه والملازمين له كنت أنا واحد منهم وقالنا : ياسيدى هذه الصفة لا توجد الا فيك فأنت المهدى ، فبايعناه فى أثناء ذلك على ما بايع به الصحابة ورسوله ﷺ وأن يكونوا يدا واحدة على القتال والدفاع فبايعه أصحابه العشرة تحت شجرة خروب وتتابع البربر بعد ذلك عليه بالمبايعة على أن يقاتلوا عنه ويبذلوا أنفسهم دونه فعرفهم بما فى ذلك من الارزاء والمحن والقتل والفتن فالتزموا بذلك » (٨٥) .

وجاء ابن تومرت بتنظيم العشرة فى خلافته من صحابته ، وألحق بهذا التنظيم تنظيما عشريا آخر على النحو التالى :

---

(٨٣) الوثائق ، مجموعات دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية ، اشراف عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٧٦ ، ج ١ ، وثيقة رقم ٧٧ ، ص ٢٢٥—٢٢٦ .

(٨٤) ويسميهم اهل العشرة ويسميهم أيضا بالجماعة .

(٨٥) الحلل الموشية ، ص ٨٨—٨٩ .

١ — أصحاب العشرة من أهل الجماعة من صحابته العشرة السابق ذكرهم ، وهم أول من آمن به وبمهدويته .

٢ — أهل الخمسين وهم التابعون فى التأييد ، وكانوا من قبائل بربرية متعددة : هرغة ، وهنتاتة ، وجدميوة ، وكنفيسة ، وصنهاجة ، والقبائل وهسكورة (٨٦)

٣ — أهل السبعين .

٤ — الطلبة من العلماء والمفكرين .

٥ — الحفاظ من صغار الطلبة .

٦ — أهل الدار من أسرة المهدى .

٧ — أهل هرغة ، قبيلة المهدى وأفراد حرسه الخاص .

٨ — أهل تينملل من أعيان المدينة .

٩ — أهل جرمونة من الجند .

١٠ — الرماة والغزاة وعامة عبيد المخزن من الجند .

---

(٨٦) المقصود بالقبائل فى التسمية الواردة بالمتن اشتات القبائل التى انحازت الى المهدى بن تومرت انتصارا له دون أن يجمعها نسب . وقد تميزبين تلك القبائل المختلفة المذكورة اهل هرغة بدعوى أنهم السابقون من انصار المهدى ، فضلا عما كانوا يمثلونه من افخاذ وبطون عديدة بحكم انهم انفسهم هم قبيلة ابن تومرت . ويذكر عنهم انهم كانوا اذا ماتجهوا الى المهدىوسألهم عن حاجتهم يقولون له ، على حد قدل البيذق : « جئنا نتبرك بك وتدعو لنا فيبايعونه ويمسح على رؤوسهم ويدعو لهم كذلك غير مامرة » (البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٤٢) . أما هنتاتة فكانت لها افخاذ تسعة وعرفت جدميوة بافخاذها الستة والاربعين وما يتبع الافخار من المزوار (بكر الاولاد) كذلك عرفت جنفيسة بأفخاذها الاثنين والعشرين ، والقبائل المسماه بهذا الاسم بأفخاذ ثمانية . وعن كومية فأفخاذها كانت خمسة وعشرين . وكانت هسكورة القبلة (بربرا البرانس) وهسكورة الظل بأفخاذ احد عشر . أما صنهاجة القبلة اى الحنوبية الساكنة خلف جبال البرانس والمتعرضة للشمس وصنهاجة الظل اى الساكنة فى الجبل بعيدة عن وهج الشمس ، فانهم كانوا للرأى والمشورة (البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٥٢—٥٣) .

ويمثل هذا التقسيم العشرى أو الطبقى التنظيم الادارى والحربى الاساسى لحكومة الدولة الموحدية . وكان الترجمة العملية لوجه من وجوه الفكر النظرى للمهدية الموحدية المذكورة . وواضح من أن أصول هـذا التنظيم فى فكر ابن تومرت لم تبتعد عن ميراثه البيئى وعن اطار تاريخى سبقت اليه التنظيمات الصوفية وحملة الميراث الاجتماعى للقبائل المغربية وسيطراً على التنظيم الحربى للموحدين ، بعد معاركهم الثلاثة الاولى ، تعديل كبير لم يكن بعيداً أيضا عن هذا الميراث نفسه ، وأن مس جانبا منه حسبما سيرد الذكر فيما بعد ، وكان من مظاهر هذا التعديل صفات التمييز التى جعلها المهدى لكل فئة فى تنظيمه لمعرفة الخبيث منهم والمحـــق فى بيعته . فيحتفظ أفراد كل فئة بميزته لا يتعـداها فى ســفر ولا فى حضر ولا ينزل كل منهم الا فى موضعه المخصص (٨٧) .

(ب) المعـارك الاولى :

ومن تنظيم العشرة أخذت الحركة الموحدية تشق طريقها نحـو بناء دولتها فى المغرب . وفى هذا السبيل خاضت الحركة عدة معارك بلغت وقائعها فى حياة ابن تومرت تسعة وقائع . والى وفاة المهدم عام ٥٢٤هـ — ١١٣٠م، لم يكن أتباعه قد دخلوا بعد الحاضرة المـرابطية مـراكش ، ومن ثم فان الدولة الموحدية عاشت فى حياة مؤسسها طور المنشأة وظلت كذلك الى ما بعد وفاته بعدة سنوات وحتى سقوط مراكش نفسها حاضرة المـرابطين فى عام ٥٤١هـ — ١١٤٧م . وكانت وفاة مهدى الموحدين فى أعقاب هزيمة فادحـة كالها المرابطون فى نفس سنة وفاته (٥٢٤هـ) لجيش الموحدين وأعنى بها وقعـة البحيرة .

---

(٨٧) البيذق ، المصدر السابق ، انظر ايضا ، ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ١٢ ، ص ٤٧—٥٥ .

وكان من نتائج ما جرى فى هذه المعركة وما بعدها من اجراءات باسم « التمييز » يعنى انتقال الدولة الى طور متميز من علاقات السلطة بين الخلافة الموحدية وأتباعها •

ويمكننا أن نشهد مقدمات هذا التطور فى أحداث المعارك الموحدية السابقة لمعركة البحيرة ، وبهذه المناسبة أود أن أشير الى حقيقة هامة تتعلق بمعارك ابن تومرت التسعة المذكورة ، وهى أن فترة هذه المعارك تكاد تنقسم الى قسمين :

القسم الاول ، ويشتمل على أخبار المعارك الثلاث الاولى التى يغلب عليها القالب المثالى التقليدى فى تفسير الموحدين لاسباب صدامهم الحربى مع المرابطين الى حد أن صفة الملثمين تغدو سبة على لسان ابن تومرت ينعت بها المرابطين ويرد فيها بنفس لتفسير •

والقسم الثانى ، فيبدأ بأخبار المعركة الرابعة التى تطلعنا على نمط هذه العلاقات ، وتتعلق أساسا بقبائل جيش الموحدين الى وقوع أحداث المعركة الاخيرة التاسعة التى وقع فيها انقسام قبلى حاد فاد الى تصفية « التمييز » والى مرض المهدى واعتكافه بداره حتى صدر نبأ موته فى رمضان سنة ٥٢٤هـ — أغسطس ١١٣١م •

عن القسم الاول ، يتمثل الرفض الموحدى للمرابطين فى أحداث هذه المرحلة فى نعتهم لهم بالثمين والفاسقين والفاسدين والفاجرين والمنافقين ومانعى الزكاة • وكان اللثام — كما هو معروف — من العادات المتوارثة عند المرابطين وما زال متداولا بين الطوارق الصحراويين الى اليوم • وقد عاب عليهم المهدى ذلك واعتبره من المحرمات التى تدخل فى اطار التشبه بالنساء فى الوقت الذى تسفر نساؤهم عن وجوههن • واستشهد المهدى فى

هذا التحريم بما روى عن الرسول ﷺ القـول : « لعن رسـول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء »(٨٨) .

وفى الصفات والنعوت الاخرى التى أطلقها عليهم المهدى ما يحقـق الهدف الدينى السياسى للموحدين ويستهدف تجريد المـرابطين من ولاية الحكم استجابة لقول الله تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسـكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون »(٨٩) ، وقـوله تعالى أيضا : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليـوم الآخـر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم »(٩٠) .

واذا كانت هذه الصفات لا تحمل من معنى فى نظر صـاحبها أكثر من هذا الهدف المذكور ، فهناك الاشارة الخاصة بالزكاة وتشبيه قتالهم بحرب أبى بكر الصديق لمـانعى الزكاة فى عبارته الشهيرة : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المـال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى الرسول ﷺ لقاتلتهم على منعه »(٩١) . وعلق ابن تومرت بعبارة

---

(٨٨) يفسر الاستاذ عنان اتخاذ المرابطين اللثام فيقول : « .. ان أهـل لمتونة — وهى قبيلة المرابطين — كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعا خاصا مـن الحجاب ، ومنها انه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلـن معهم محجبات ، حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال ، ومنها أنهم كانوا يلجأون الى اللثام تخفيا من طلبة ثأر الدم ، وأخيرا أن اللثام كان من ضروريات الحماية من لفح العواصف والرمال والحر والبرد . وما تزال عادة اللثام قائمة حتـى اليوم فى بعض قبائل موريتانيا والسودان وغيرهما . وأما عن ستور النساء ، فقد قيل انه لكى يظهر انحطاطهن عن الرجال . عصر المرابطين والموحديـن ، العصر الثالث ، قسم ١ ، ص ٢١٢ .

(٨٩) سورة هود ١١ ، الآية رقم ١١٣ .

(٩٠) سورة المجادلة ، ٥٨ ، الآية رقم ٢٢ .

(٩١) عن سورة المجادلة ٥٨ ، الآية رقم ١٣ حيـث نفس المعنى « أن الشرك لظلم عظيم » .

خاصة به نصها: « كل من منع فريضة من فرائض الله حق على المسلمين جهاده حتى يأخذوا منه . فكيف بمن منع الايمان والدين والسنة ؟ »[٩٢] .

فهل كانت هذه النعوت ترجمة لتدهور كبير أصاب أخلاقيات مجتمع المرابطين قبيل اندلاع الثورة الموحدية ؟ اجابة ذلك نجدها فيما ذكره صاحب المعجب اذ يقول : « اختلت حال أمير المسلمين وظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستعلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا فى ذلك الى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين وأحق بالامر منه ، واستولى النساء على الاحوال وأسندت اليهن الامور فصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور وأمير المسلمين فى ذلك يزيد من تغفله ويقوى من ضعفه وقنع باسم امرة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادات والتبتل وأهمل أمور الرعية غاية الاهمال »[٩٣] .

ومثل هذا القول قد عبر عنه ابن خلكان فى صورة أخرى حيث قال أن المهدى فى تنملل : « رأى بعض أولاد القوم شقرا زرقا وألوان آبائهم السمرة والكحل .. فسألهم عن سبب ذلك ، فلم يجيبوه فألزمهم الاجابة ، فقالو : نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج ، وفى كل سنة تصعد مماليكه الينا وينزلون فى بيوتنا ويخرجوننا عنها ، ويخلون بمن فيها من النساء ، فتأتى أولادنا على هذه الصفة .. وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا » . فقال محمد : « والله ان الموت خير من هذه الحياة ، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح ؟.. فقالوا : « بالرغم لا بارضا ،

---

(٩٢) علام ، الدولة الموحدية ، ص ٧٣—٧٤ وعن قائمة الاحاديث التى استند اليها ، أنظر ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٩٣) المراكشى ، المعجب ، ص ١١٧ ، الجراوى ، الموحدون ، ص ٨٤ .

فقال : أرأيتم لو أن ناصرا نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون ؟ » قالوا: كنا نقدم نفسنا بين يديه للموت • قالوا : من هـو ، قال : ضيفكم — يعنى نفسه — فقالوا : السمع والطاعة »(٩٤) •

على أية حال ، ففى هذا الاطار العام من النعوت السببية التى وصم بها ابن تومرت المرابطين وتقويض الاساس الاخلاقى الدينى والاجتماعى لحكمهم ، خاض الموحدون معاركهم الاولى • وعرفت المعركة الاولى بغزوة « تاودزت » ، وفيها تولى قيادة المرابطين القائد يينتان بن عمر الذى أن آوى المهدى فى أيام محنته الاولى مع على بن تاشفين • ووضح من تنظيم المرابطين فى المعركة أن راعوا الهدف السياسى ممثلا فى اختيار القيادة كما راعوا الهدف الحربى هو الآخر فيما جيشوه من قوة كبيرة أثارت الهلـع بادىء ذى بدء فى قلوب الموحدين • ومع ذلك ، فان الحمـاس المهـدوى للموحدين كان سببا فى ايقاع الهزيمة بالمرابطين الى حد أن المهدى أطلـق عليهم صفة أخرى هى « الحشم » •

فى المعركة الثالثة مع المرابطين ، حفظ التاريخ رسـالة خطهـا ابن تومرت وبعث بها الى شيوخ المرابطين قال فيهـا : « الى القـوم الذين استزلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمان ، الفئـة الباغية والشرذمـة الطاغية اللمتونيـة •

أما بعد فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ، ولزوم طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة ، فان أديتموها كنتم فى عافية ، والا فنستعين بالله على قتلكم حتى نحو آثاركم ، ونكدر دياركم ، ويرجع العـامر خاليا ، والجديد باليـا •

---

(٩٤) ابن خلكان ، وفيات ، ج ٥ ، ص ٥١—٥٢ .

وكتابنا هذا اليكم اعذار وانذار . وقد أعذر من أنذر .

والسلام عليكم سلام السنة ، لا سلام الرضى »[٩٥] .

والرسالة المذكورة كما هو موضح تخلو من سبب محدد للحرب الدائرة بين الطرفين . ومع ذلك ، فعندما نصل الى أخبار المعركة الرابعة فى تاريخ هذا الصدام الحربى بين المرابطين والموحدين ، نعثر على بداية الخيط الذى ينتهى بأحداث « التمييز » المذكور . ففى هذه المعركة أو الغزوة الرابعة للموحدين ، أقدم المهدى على ترتيب جيشه الى مجموعة من الفرق تبعا لاقسام القبائل الكبرى ، يتقدم كل منها قائدها وعلمها . فظهر عبد المؤمن حاملا أهم أعلام المهدى « العلم الابيض » وأخرج معه قبيلة كدميوة . وقام على قبيلة هرغة قائدها أبو ابراهيم يحمل العلم الاصفر . وتقدم القائد عبد الله بن علوية على قبيلة كنفيسة بعلم أصفر آخر . وقدم لياللتن علم على قبيلة تينملل ، ثم علم آخر لعمر آينتى وقدمه على هنتاتة . ثم رتب المهدى سائر القبائل على ذلك الترتيب . بينما تولى قيادة جيش المرابطين قائدان من أشهر قوادهم هما يانو ، وآكدى بن موسى . وكان النصر حليف الموحدين فى موقعة تيزى آن ماست[٩٦] .

كان التنظيم القبلى لجيش الموحدين بعد المعركة الثالثة يعنى أن الخيط المذكور جاء ترجمة لوضع اجتماعى أضيفت أسبابه الى الاسباب الدينية فأدت جميعها الى انتصار مجموعات هذه القبائل للدعوة الموحدية ورفض الحكم المرابطى ويعبر ابن عذارى عن نتائج ذلك اقتصاديا بقوله : « .. اتصلت الحروب ببلاد أهل اللثام وغلت الاسعار بمراكش حتى وصل

---

(٩٦) وتلتها المعركة الخامسة فى آنا آن بماديدن وانتهت هى الاخرى

(٩٦) وتلتها المعركة الخامسة فى آنا آن بماديدن وانتهت هى الاخرى بانتصار الموحدين ، انظر ، البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٣٦—٣٧ .

فيها الربع من الدقيق بمثقال حشمى ذهبى ، وتوالى هذا الجدب حتى جفت فى الارض مذابتها وأغبرت جوانبها وقلت المجابى بهذه الفتن .. »[٩٧] .

ويخرج من ذلك بالنتيجة الآتية : أن التقسيم الحربى المذكور أوضح أن الحركة الموحدية انتقلت الى طور جديد من تنظيمها كدولة . وفى هـذا الطور ، وقع اختلاف حـول مسألة الغنائم ، ونستدل على ذلك من قـول المهدى : « .. واجتنبوا المحارم ، وردوا المظالم ، وتحاللوا وتغافروا فيما بينكم يغفر الله لكم ، وأصـلحوا ذات بينـكم . ولا تفسـدوا فى الارض ولا تبذروا ولا تسرفوا ، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تخـونوا ولا تغدروا ، ولا تحسدوا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تولوا الادبار عنـد لقاء العدو ، بمن فعـل ذلك فقـد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . واياكم والغلول (فى الغنيمة) ، فان الغلول عار وناد وشنار على أهله يوم القيامة ، وأقسموها على موافقة الكتاب والسنة ولا تغيبوا قليلا ولا كثيرا ، للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم بعد اخراج الخمس من رأس الغنيمة ، والغنيمة لمن شهد الوقيعة »[٩٨] .

ويشير البيذق الى نفس الموضوع بقوله : « فى أثناء عـودتهم الى تينملل جار لى طريقه على غدان من جلبان ، فقال : « اقلعوه » فقلعناه ، فلما تلح تخاطفوه فأخذ كل واحد قدر مقدرته فتبسم وقال : « هكذا تتخاطفون بعدنا على الدنيا »[٩٩] .

---

(٩٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ط تطوان ، ١٩٦٠ ، ج ٣ ، ص ١٢—١٣ .

(٩٨) الوثائق ، وثيقة رقم ٨٣ ، ص ٢٣٧ .

(٩٩) جلبان فى لغة المغاربة هى ماتعنى فى المشرق : البازلاء (انظـر ، البيذق ،أخبار المهدى ، ص ٤١) .

ونستنتج مما سبق أن الامر يتعلق بضعف عام فى قدرة التعاليم الموحدية على احتواء النوازع المادية لدى القبائل عموما[١٠٠] • وفى هذا الصدد عرفت قبيلة هرغة (أهل ابن تومرت) وما فى مستواها — ودون القبائل الاخرى — السبيل الى ارضاء أفرادها لانهم على حد قول البيذق : « هم السابقون وأنهم أنصار المهدى •• »[١٠١] •

ومهما يكن من أمر التساؤل حول خصوصية معاملة قبيلة هرغة بالمقارنة بغيرها من القبائل الموحدية ، فان من الواضح أن الزعامة الموحدية قد ذهبت الى تغليب تعاليمها المرشدية حفاظا على الطابع الدينى المهدوى للثورة • وانعكس ذلك على تنظيم القبائل فى الجيش الموحدى ، فكانت اعادة ترتيب هذا التنظيم بعد الحملة الثالثة أشبه بمحاولة سامية أولية للتنظيم المتطور الذى تم بعد المعركة التاسعة على أساس ما عرف بتصفية التمييز بين قبائل الجيش الموحدى •

وفى المعركة السادسة وهى معركة تيفنوت ، اشتد القتال بين المرابطين والموحدين بحيث لم ترجح كفة أحد الطرفين على الآخر وانتهى بعودة كليهما الى موضعه معولا على الغزو من جديد • أما الغزوة الموحدية السابعة فاستهدفت قبيلة هسكورة ودارت الموقعة فى موضع يعرف بـ آزليم • وفيها خرج المهدى لاول مرة وكان القتال من الضراوة والعنف بحيث جرح فى أثناء القتال • وفى هذا يقول البيذق : « •• فتاتلناهم وشد الوطيس حتى شج المعصوم ورفعه اسحاق بن عمر ووسنار »[١٠٢] • ثم كانت المعركة الثامنة التى سبقت هزيمة البحيرة • وحدث فى هذه المعركة

---

(١٠٠) انظر الفصل الرابع فى موضوع المرشدية الموحدية .
(١٠١) البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٣٧ .
(١٠٢) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٣٨ .

وهى معركة تراكورت أن خرج الموحدون بمغانم عديدة منها أعداد من العبيد كانوا من الكثرة الى حد أن سماهم المهدى عبيد المخزن(١٠٣) .

ولعل ما خطه المهدى فى رسالته الى المحاربين من رجاله فى معركة البحيرة ، يعبر عن وجه من وجوه التطور الذى طرأ على العلاقات بين القبائل بعد المعركة الثامنة ، فهو يقول : « .. واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكارين ، وكل من نسب الى العلم أشد فى الصد عن سبيل الله من ابليس اللعين ، فلا تلتفتوا الى ما يقولون ، فانه كذب وبهتان ، وافتراء على الله ورسوله ، وما نسبوكم اليه من الخلاف لله والرسول فذلك خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله ، يأبى الله ورسوله أن يكون من تمسك بالحق واتبع سنة رسول الله ﷺ وأناب الى الله مخالفا لله ورسوله ، بل المخالف لله ورسوله من اتبع الباطل وخطوات الشيطان ... واعلموا وفقكم الله أن الموحدين فى الامن والامان ، ونصر من الله وعافية وفضل منه واحسان ، تتابعت عليهم النعم وترادفت عليهم المنن ، لله الحمد على ذلك ، فاشتغلوا بتعليم ما يلزمهم والاهتمام بدينهم والقيام بفرائضهم والاستعداد للقاء ربهم ، فالله يتم علينا وعليهم ، ويوزعنا شكر أنعمه ، أذل الله لهم عدوهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب وزلزل أقدامهم .. »(١٠٤) .

ثم كان صدور الامر باجراء تصفية التمييز التى قام بتنفيذها القائد

---

(١٠٣) البيذق ، نفس المصدر ، وقد أرسل المهدى رسالة الى الامير على بن يوسف بن تاشفين قبل معركة البحيرة يتوعده فيها ، وقد أحل فيها دماء المرابطين، انظر الملحق رقم ٣٤٢ .

(١٠٤) الوثائق ، وثيقة رقم ٨٣ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ . وراجع نفس النص فى : محمد بن تاويت ، الادب المغربى ، ص ١٦٥ .

الموحدى أبو محمد عبد الله بن محسن البشير الونشريسى[١٠٥] . وشملت تصفية التمييز الملقبين بـ « المنافقين والمخالفين والرافضين والخبثاء من الموحدين » . وقد استغرق التمييز بينهم مدة أربعين يوما أبيد فيها خلق كثير بلغ تعدادهم خمسة قبائل كاملة . واذا كانت تصفية التمييز هذه قد تمت مباشرة قبل اللقاء الأخير بالمرابطين فى هزيمة البحيرة ، فقد كان لها تكملة بعد الوقعة شملت قبيلة كنفيسة[١٠٦] .

ويصف البيذق هزيمة الموحدين فى البحيرة[١٠٧] فيقول : «..وهزمونا بالعشى ، ونجا الموحدون ، ومات من مات ، وافترق الناس »[١٠٨] . وأسرع البيذق يخبر المهدى بنتيجة المعركة . وبقدر اهتمام المهدى بالمعركة وتلهفه على سماع تفاصيلها كان اهتمامه بعبد المؤمن ويتمثل ذلك فى لهفته فى السؤال عنه : « عبد المؤمن فى الحياة ؟ قلت نعم .. قال : الحمد لله رب

---

(١٠٥) هو أبو محمد عبد الله بن محسن البشير الونشريسى ، من أهل المغرب الاوسط ، لقى المهدى عند مروره بجبال ونشريس أثناء عودته من الرحلة المشرقية ، وصار من تلاميذه ثم من جماعة العشرة ، وقد كلفه المهدى بمعظم المهام العسكرية ضد المرابطين ، ثم تولى تمييز الموحدين ، وفقد فى معركة البحيرة عام ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م (البيذق ، أخبار المهدى ، ص ١٩) .

(١٠٦) البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٣٧ . ويذكر السلاوى : « أنه غزا مراكش وحاصرها لمدة ٣ سنوات من سنة ٥١٦ هـ الى سنة ٥١٩ هـ ، وكان ينزل بجبل كيليز بقرب المدينة ، فبايعته كدميوة ، وغزا بلاد ركراكة ، وسار فى بلاد المصامدة ، ثم رجع الى تينملل وأقام بها شهرين ، وغزا مدينة أغمات وبلاد هزرجة وأهل درن وأطاعته هرغة وهنتاتة وكنفيسة بعد تمييزها،وانتدبهم لغزو مراكش ومد قدم عليهم عبد المؤمن وخصه بامامة الصلاة ، أما القيادة فلابى محمد البشير . (الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٣—٩٤) . راجع ايضا فى ذلك الملحق رقم ٣ ، ٤ .

(١٠٧) البحيرة تعرف ببحيرة الرقائق ، بسيط كان أمام باب الدباغين وباب ايلان من مراكش حيث حدائق أكدال الحالية (البيذق ، أخبار المهدى ، حاشية رقم ٦٦ ، ص ٤٠) .

(١٠٨) البيذق ، نفس المصدر .

العالمين قد بقى أمركم ، هل جرح ؟ قلت : شج فى فخذه الايمن ، فقال : لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، الامر باق ، ثم قال : ارجع اليه وقل له الامر باق ولا تجزعوا »[١٠٩] .

وبهذا الحوار الذى جرى بين المهدى والبيذق عن عبد المؤمن ، بدت الدولة الموحدية وكأنها ما زالت فى طور نشأتها لم تنتقل بعد من اطار جماعة الصحابة الاولى للمهدى . والحقيقة أن القبائل الموحدية خاضت بالفعل غمار تجربة أحداثه وعلاقاتها . وفى أحداث هذه التجربة ، ظهر تمسك الزعامة المهدوية بمنظورها الدينى المهدوى فى ترتيب العلاقات القبلية بين أنصارها . ولكن وضح أيضا أن الاحداث المذكورة لم تخل من اتجاه مضاد يتمثل فى سلوك القبائل ويقترن بالاسباب المختلفة لثورتها على حكم المرابطين وترتب على ذلك اجراء بعض التوازن فى هذا الاتجاه الآخر مع الاتجاه المهدوى عن طريق اعادة تنظيم قوات الموحدين فى المعركة الرابعة .

ولكن يتبين لنا من خلال أحداث المعارك التالية حتى المعركة التاسعة أو هزيمة البحيرة (٥٢٤هـ — ١١٣٠م) أن الامر انتهى بانتصار الاتجاه المهدوى وتصفية الاتجاه الاخر وأصحابه فى اجراءات التمييز المذكور بالرغم من تشدد الزعامة المهدوية فى موضوع الغنائم ورفض ابن تومرت التكالب عليها أو التنازع حولها[١١٠] .

ومن الجدير بالذكر أن المهدى بعد وقعة البحيرة المذكورة ، استخدم براعته فى ايهام أتباعه الذين تسرب الشك الى قلوبهم ، بقدراته الخارقة ومعجزات مهدويته والتأثير عليهم مستغلا فى ذلك ميل البربر الى تصديق

---

(١٠٩) البيذق ، نفس المصدر والصفحة .
(١١٠) راجع ما سبق عن الغنائم والوضعية الممتازة لقبيلة هرغة .

ما يمليه عليهم المهدى فيذكرون أنه انتخب عددا من أتباعه ، ودفنهم فى موضع المعركة بعد أن جعل لكل واحد متنفسا فى قبره ، وقال لهم : « اذا سئلتم عن حالكم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، وأن ما دعا اليه الامام المهدى هو الحق ، فجدوا فى جهاد عدوكم » • وقال لهم أيضا : « اذا فعلتم ذلك أخرجتكم ولكم عندى المنزلة العالية » • وبعد ذلك جمع أصحابه وقام لهم : « أنتم يا معشر الموحدين حزب الله وأنصار دينه واعوانه الحق • فجدوا فى قتال عدوكم فانكم على بصيرة من أمركم ، وان كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد من اخوانكم يخبرونكم بما لقوا من الثواب عند الله • وأتى بهم الى موضع المعركة ونادى « يا معشر الشهداء ماذا لقيتم عند الله عز وجل ؟ قالوا : قد أعطانا من الثواب لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على بال بشر »[١١١] • فذهلوا ، وافتتنوا ، واعتقدوا أن الموتى قد كلمتهم ، وقصوا هذا الحادث على بقية اخوانهم ، فزادهم بصيرة بأمره وثباتا على رأيه وزاد ايمانهم بعقيدويته ، وتمسكهم بمذهبه وأصبحوا على أتم الاستعداد للتضحية من أجله •

وينكرر مثل هذا المسلك الذى لا ينكره الميراث الفكرى لقبائل ، وفى اطاره أمكنه ايهامها بأنه موحى اليه • ففى ساعة احتضار المهدى وساعة دنو أجله ، أظهر علمه بميقات هذا الاجل فى حوار دار بينه وبين الهاتف الذى نادى به وأوحى اليه بخبر موته • وقد رأيت أن أسجل هذا الحوار لاهميته البالغة بالنسبة لمستقبل الدعوة الموحدية ، فقد مات ابن تومرت بالفعل بعد ستة أيام من اعلان الحوار المذكور • وفيما يلى نص ذلك الحوار كما ورد فى أخبار المهدى :

---

(١١١) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

الهـاتف :

كأن بهـذا البيت بـاد أهـلـه

وقـد درست أعـلامه ومنـازله

المهـدى :

كذلك أمـور الناس يبلى جديدها

وكـل منـا حقـا ستبلى خصائله

الهـاتف :

تزود من الدنيـا فانـك راحـل

وانـك مسئول فمـا أنت قائله ؟

المهـدى :

أقـول بأن الله حـق شهـدته

وذلك قـول ليس تخـفى فضـائله

الهـاتف :

فخـذ عـدة للمـوت انـك ميت

وقـد أزف الامر الذى أنت نازله

المهـدى :

مـتى ذاك خـبرنى هديت فاننى

سـأفعل ما قـد قلت لى وأعاجله

الهـاتف :

تبيت ثـلاثا بعـد عشرين ليـلة

الى منتهى شهر فمـا أنت كامله[١١٢]

---

(١١٢) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٤٢—٤٣ ، ابن ابى زرع ، القرطـاس ص ١٨٠ .

وذهب البيذق الى أبعد من هذا الحوار الغيبى فى تأكيد خبر الايحاء الى المهدى بالموت فيما ذكـره عنه أنه (ابن تومـرت) قال لاصـحابه : « اسألونى عما بدا لكم من أمر دينكم ودنياكم فانى غدا ان شاء الله أجتمع مع ربى .. وأقول كما قال رسول الله ﷺ : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا ، ألا قد بلغت ؟ ألا قـد بلغت ؟ ألا قد بلغت ؟؟ »[١١٣] . وفى رواية أخرى يوردها البيذق أن المهدى عندما عاد من موقعة البحيرة ولحق بالموحدين فيها ما وقع من هزيمة كبرى، شعر بالغمة واعتلت صحته فرجع الى داره فى تينملل ، وبعدها خرج الى أتباعه وقال لهم : « أعرفونى وحققونى ، أنا مسافر عنكم سفرا بعيـدا ، فضج الناس بالبكاء فقالوا له : ان كنت تسير الى الشرق نسير معك ، فقال: ليس هذا سفر يسافره أحد معى ، انما لى وحدى »[١١٤] .

وعلى هذا النحو انتهت حياة المهدى ابن تومرت فى هـذا الاطار من الحوار الفكرى الغيبى عن موته .

(ج) عبد المؤمن بن على « أمير المؤمنين » :

يشبه ابن خلكان ما وقع فى البحيرة بالفجر يتقدمه الفجر الـكاذب وبعده ينبلج الصبح ويستعلى الضوء[١١٥] . وهذا التشبيه يتضمن الكثير من الحقيقة ، فقد حدث بعد التمييز الثانى أن نزل الموحدون على مراكش وحاولوا اقتحامها من جديد فعجزوا عن ذلك وظلوا يحاصرونها ثلاثة أشهر

---

(١١٣) البيذق ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(١١٤) البيذق، نفس المصدر ، ص ٤١ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(١١٥) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ ، السـلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٨٩—٩٠ .

عادوا بعدها الى تينملل • وخلال هذه الفترة مرض المهـدى غما وحسرة بسبب انكسار الموحدين فى موقعة البحيرة التى كبدته أخلـص الاتبـاع وأعظم القواد •

ومما يذكر فى هذا الصدد أن المهدى لمـا شعر بمرضه وأحس بدنو أجله ، لزم داره وظل فى غيبة عن الناس لمدة ثلاث سنوات يتناوب عليه : عبد المؤمن ، وأبو ابراهيم أو اسماعيل بن يسلالى الهزرجى ، وعمر أصناك ووسنار ، وأخته أم عبد العزيز بن عيسى • وكان أبو محمد وسنار يخرج الى الموحدين ويذكرهم أن المهدى يأمرهم أن يفعلوا كذا وكذا ، وكان أهل الجماعة يخرجون للغزو وظل الامر على هذا النحو حتى اشتد عليه المرض فتوفى فى شهر رمضان من عام ٥٢٤هـ ــ أغسطس ١١٣٠م[١١٦] •

وكان المهدى قبل وفاته قد أقر عبد المؤمن بن على أمـيرا للمؤمنين عندما خاطب الموحدين بقوله : « أنتم المؤمنون وهـذا أمـيركم »[١١٧] • وعندما حانت ساعة وفاته دعا عبد المؤمن وأوصاه بمن أحب وباخوته خيرا، وأعطاه كتاب الجفر ، وأمره أن يخفى أمر موته أياما اذا مات حتى تجتمع كلمـة المـوحدين •

كان عبد المؤمن قريبا الى قلب ابن تومرت ، فقد رفع منزلتـه وأدناه الى نفسه اذ كان يجد فى طموحه صورته الشابة ، ووجد فيه ضالته ووضع فيه كل أمله فى تحقيق ما كان يستهدفه من دعوته ورسـالته ، ويعبر ابن تومرت عن اعجابه بسمات عبد المؤمن بن على فى قوله :

---

(١١٦) هناك اختلاف فى تاريخ وفاة المهدى بين اغلب المؤرخين . انظـر تلك الآراء واختلافها فى : ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٨٠ــ١٨١ . انظـر أيضا ذلك فى : البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٤٢ .

(١١٧) المراكشى ، المعجب ، ص ١١٤ .

تجمعت فيك أشياء خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
فاللسن ضاحكة والكف مانحة والصدر متسع والوجه منبسط[١١٨]

فهل كانت منزلة عبد المؤمن عند القبائل الموحدية تماثل منزلته عند شيخه المهدى ؟[١١٩] .

كان عبد المؤمن بن على الكومى — حسبما سبق — من كومية . وبالرغم من أصله البربرى ، نراه يرفع نسبه الى بيت الرسول ﷺ عسى أن يسبغ ذلك شرعة لامامته الموصى عليها من المهدى . وكان ثابتا لدى أقرانه أنه زناتى الاصل جاء من تاجرة على بعد عدة أميال من مرسى هنين[١٢٠] .

على أن أصحاب المهدى أخفوا خبر وفاته ثلاث سنوات كاملة شغلوا خلالها بمصادقة المرابطون . وما كان خبر وفاة المهدى يعلن رسميا فى سنة ٥٢٧هـ — ١١٣٢م حتى تفجر النزاع بين أصحاب المهدى العشرة حول صاحب الحق منهم فى الخلافة . وازداد الخلاف حدة بعد أن دخل أهل الخمسين مع أهل العشرة فى نزاع حاد قبل أن يقرر شيوخ الموحدين حقنا للدماء مبايعة الشيخ أبو عمر بن على الصنهاجى المعروف بأزناج[١٢١] . ولم يلبث

---

(١١٨) ابن ابى زرع ، القرطاس ، ص ١٨٤ .

(١١٩) أنظر رأى المهدى فى عبد المؤمن عند ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ٣٦٣ .

(١٢٠) تاجرا قرية على ساحل البحر بأرض قبيلة بنى عابد من حوز ندرومة لازالت تعرف بهذا الاسم الى الآن . ومرسى هنين قرية شهيرة تقع بجبال ترارة على ساحل البحر المتوسط بين مصب نهر تافنا ومرسى الفزوات ، كانت بالعصر الوسيط مرسى تلمسان ونواحيها وفيها آثار للموحدين ، ابن خلدون ، العبر ج ٦ ، ص ١٢١ .

(١٢١) عمر بن على الصنهاجى ، يعرف عند الموحدين بعمر أصناك (ازناج) أى الصنهاجى بالشلحة (البربرية) واسمه الاول يلوك ، أحد السابقين الاولين الى نصرة المهدى بن تومرت ونشر دعوته ، وأحد العشرة الذين سارعوا الى بيعته ، فكان بذلك من أهل الجماعة العشرة ، استوزره المهدى ولما مات كان أحد الثلاثة الذين بايعوا عبد المؤمن بن على خلفا له ،

هذا الشيخ أن أشار على الموحدين بمبايعة عبد المؤمن بن على الكومى ، اقرارا بمنزلته عند الامام المهدى ، ولانه غريب عن قبائلهم ليس له أهل وعصبية يعتمد عليها فى منافسته لهم • فاجتمعت الآراء وشرعوا يبايعونه، فلما أقبل المصامدة بين يديه نهض قائما فحمد الله وصلى على محمد ﷺ ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ويذكر ثباتهم فى الدين وصلابة عزيمتهم ، وتصميمهم على الحق ثم قال : « فانقرضت هذه العصابة نضر الله وجوهها وشكر لها سعيها وجزاها خيرا عن أمة بنيها ، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيرانا والعالم جاهلا ، مداهنا ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك واجتابوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس اليهم فى أشباه هذا القول الى هلم جرا • ثم ان الله سبحانه وله الحمد من عليكم أيتها الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده وقبض لكم من ألفاكم ضلالا لا تهتدون وعميا لا تبصرون لا تعرفون معروفا ولا تنكرون منكرا • قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الاباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لسانى عن النطق بها • وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله به بعد الضلالة وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة وأعزكم بعد الزلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين وسيورثكم أرضهم وديارهم ذلك بما كسبت أيديهم وأضمرته قلوبهم « وما ربك بظلام للعبيد ، فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم وأروه من الشكر قولا وفعلا ما يزكى به سعيكم ويتقبل أعمالكم وبنشر أمركم واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يدا واحدة على

فنحاه عبد المؤمن عن الوزارة تشريفا له وتنويها بقدره لانه ارفع منها قدرا ، وتوفى عام ٥٣٦ هـ . وكان لاولاده مكنة عظيمة عند عبد المؤمن وكانوا أول من يمر فى العرض العام عند الموحدين (البيذق ، أخبار المهدى ، حاشية رقم ٥٣ ؛ ص ٣٤) .

عدوكم فانكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا الى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم ، وألا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحتقركم العامة فتخطفتكم الخاصة ، وعليكم فى جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف . واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الامة الا على الذى صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا بكم رجلا منكم وجعلناه أميرا عليكم هذا بعد أن بلوناه فى جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلانيته ، فرأيناه فى ذلك كله ثبتا فى دينه متبصرا فى أمره ، وانى لارجو ألا يخلف الظن به ، وهذا المشار اليه هو عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعا مطيعا لربه ، فان بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب فى أمره فغنى الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والامر أمر الله يقلده من شاء من عباده »(١٢٢) .

وجاءت هذه البيعة العامة بعد ما سماه ابن صاحب الصلاة ببيعة السر التى تمت بعد وفاة المهدى مباشرة وقبل ن يختلف الصحابة العشرة حولها. واستغرقت البيعة الاولى مدة ثلاث سنوات هى التى أعلن خلالها خبر اعتكاف المهدى لمرضه . ويسرد ابن خلدون أخبار هذه الفترة قائلا : « أن المهدى حين توفى خشى أصحابه من افتراق الكلمة ومما يتوقع من سخط المصامدة لولاية عبد المؤمن لكونه من غير جلدتهم ، فأرجأوا الامر الى أن تخالط محبه الدعوة قلوبهم ، وكتموا موته ثلاث سنوات يموهون فيها بمرضه ويقيمون سنته فى الصلاة والحرب ، ويدخل أصحابه بيته كأنه اختصهم بعبادته فيجلسون الى قبره . ويتفاوضون فى شئونهم . ثم يخرجون لانفاذ

---

(١٢٢) المراكشى ، المعجب ، ص ١١٧—١١٨ . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ . ص ٣٢٧ . وطالع ايضا نص هذا الخطاب على نحو غير كامل من منتصفه فى : محمد بن تاويت ، الادب المغربى ، ص ١٦٧ .

ما أبرموه ويتولى ذلك عبد المؤمن ، حتى تمكن أمر الدعوة فكشفوا القناع عن موت المهدى • واتفقوا على تقديم عبد المؤمن وتولى ذلك أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى جد الملوك الحفصيين الموحدين أصحاب تونس ، عرض البيعة لعبد المؤمن ، فانقادوا له وأجمعوا على بيعته »(١٢٣) •

أما البيذق فيذكر البيعة الثانية على أنها مجرد اعلان أو اظهار للبيعة الاولى (السرية) فى قوله : « ••• توفى رضى الله عنه (المهـــدى) يوم الاربعاء وقبل يوم الخميس ٢٥ رمضان سنة ٥٢٤هـ وبويـــع الخليفة يوم السبت لاقرب من هذا التاريخ •• ولمـــا عاد عبد المؤمن الى تينملل صاح بالقبائل وضم الموحدين وجعل المجلس فاستعمل ركائز وحال بين الرجال والنساء ، ثم وعظ الناس وقال لهم فى آخر كلامه : « بقى عندكم عهد بيعة المهدى رضى الله عنه ، قالوا :نعم • فقعد ثم وعظ عمر أصناك ثم ســـائر المشيخة رضى الله عنهم أجمعين ، ثم قال لهم : المهدى قـــد توفى رضى الله عنه ، فبكى الناس ، ثم قال لهم : اسكتوا ، فسكتوا • فقـــال أبو ابراهيم وعمر أصناك ، وعبد الرحمن بن زكو ومحمد بن محمد لعبد المؤمن : أمدد يدك نبايعك البيعة التى عقدناها مع الامام المهدى فمد يده ، وبايعوه ، ثم تبعهم سائر الناس • وكانت البيعة ثلاثة أيام متتالية »(١٢٤) •

ونخرج من الاحداث التى اقترنت البيعة بأن ولاية عبد المؤمن لخلافة الموحدين لم تخل من عقبات ومشاكل عويصة كانت دوافعها هى نفس دوافع مشكلات الحركة الموحدية فى طور نشأتها ابان حـــروبها الاولى • وكانت

---

(١٢٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٧ ، ابن أبى دينار ، المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ، تونس ١٢٨٦ ، تحقيق محمد شمام ، ص ١١٤ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٠١ . انظر : عنان ، عصر المرابطيـــن ، حول الآراء المختلفة ، قسم ١ ، ص ٢١٩—٢٢١ .

(١٢٤) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٤٥ . الزركشى ، تاريخ الدولتيـــن الموحدية والحفصية ، تونس ، ١٩٦٦ ، تحقيق محمد ماضور ، ص ٧ .

تجربة البحيرة درسا قاسيا وعاه عبد المؤمن حيث شهد ارتداد كثير من الموحدين عن الدعوة اعتقادا منهم بأن امامهم المهدى المؤيد بالله لا يجوز أن يهرم فعمل على اخفاء موت المهدى حتى يلتئم الجرح ولا تكون هناك ثغرة على حد قول البعض(١٢٥) ينفذ منها المرابطون لتقويض دعائم حركة الموحدين .

وتؤكد الروايات الغيبية عن عبد المؤمن حرصه الشديد على ألا تفلت الخلافة من يده وذلك فى حياة المهدى حسبما ورد فى القصة التى أوردها صاحب « المعجب » وتتعلق بمنام لعبد المؤمن فيه ايماءة بضياع هذه الخلافة على يد ثائر من بجاية وأخرى بحصوله عليها حين أتى عليه من قال له : « أتعرف من هذا الذى اهتزت له هذه الارض ؟ قال : لا ، قالوا : هو فلان صاحبك الذى كان يعلمنا معك ، فقال : ان كانت حالة فلان انتهت الى هذا فلابد أن أكون غدا أنا أمير المؤمنين »(١٢٦) .

على أية حال فقد تلقب عبد المؤمن بن على بعد ظفره بالبيعة العامة « بالخليفة أمير المؤمنين » . ويعنى هذا اللقب التعلق بفكرة الخلافة

---

(١٢٥) عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧—٢٢٨ .

(١٢٦) هناك قصة أخرى لها صلة بتلك التى وردت بالمتن أوردها ابن ابى زرع ويذهب فيها عبد المؤمن مذهب أصحاب الكرامات الخارقة حين دبر للمجتمعين حوله من الموحدين مشهد هجوم أسد عليهم وتمسحه بعبد المؤمن دون أن يؤذيه (القرطاس ، ص ١٨٤—١٨٥) . هذا وقد صارت هذه القصة موضوع قصيدة شعرية لشاعر الموحدين أبى الحسن بن عبد الله ابن الاشيرى (من أهل تلمسان توفى عام ٥٦٩ هـ) الذى قال فيها :

انس الشبل ابتهاجا بالاسد ... ورأا شبه أبيه فقصد

ودعا الطائر بالنصر لكم ... فقضى حقكم لما وفد

انطق الخالق مخلوقاته ... بالشهادات فكل قد شهد

انك القائم بالامر له ... بعد ماطال على الناس الامد

ابن أبى زرع ، نفس المصدر ، ص ١٨٦ .

الاسلامية العامة وأن مشاعر الخوف على مصير هذه الخلافة فى المغرب والمشرق الاسلاميين عموما قد ظهر صداها قويا من جديد فى مطلع عهد عبد المؤمن • وما قصة ثائر بجاية المشار اليها سابقا الا اشارة على تعلق فكر عبد المؤمن من أيام مهديه بهذه المشاعر وتطلعه من ثم الى التوسع شرقا بعد استكمال الانتصار على الدولة المرابطية • ويدعم من هذا التطلع القول بأن أخبار نجاح الحركة الموحدية قد سبقت الى الشرق وشدت من أيدى من نواجد من رجالها فى المشرق من أيام رحلة ابن تومرت المشرقية •

وفى هذا الصدد يذكر د• مختار العبادى : « •• وكان لهذا النجاح صدى كبير بين المشارقة أيضا بدليل كتابات المعاصرين لهذه الفترة ••مثال ذلك شاعر جنوب الجزيرة العربية نجم الدين عمارة اليمنى الذى عاش بمصر فى أواخر العصر الفاطمى ، فقد أراد هذا الشاعر أن يضرب مثلا للاحداث الجارية فى عصره فلم يجد فيها أعظم من شخصية ابن تومرت الذى ارتفع فى رأيه الى أعلى درجات المجد والنفوذ فيقول :

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
كما يقول الورى لحما على عظم
وتد نرقى الى أن أمسكت يده
من الكواكب بالانفاس والكظم
وكان أول هذا الدين من رجل
سعى الى أن دعوه سيد الامم(١٢٧)

ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال أن الدعوة الموحدية كانت قد عبأت

---

(١٢٧) ابن خلكان ، وفيات ، ج ٣ ، ص ٤١٥ د . مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ١١٢—١١٣ انظر أيضا :

— Hartwing Derenbourg; Omara du Yemen, Sa Vie et son Oeuvre, Tome; 1, Paris, 1909, p. 354.

بالفعل كل طاقاتها وجندت كل دعاتها وأنصارها للخلافة الموحدية فى ربوع العالم الاسلامى لا سيما فى مصر والشام • فالبيذق يذكر من أنصار المهدى فى المشرق ما جاء فى قوله : « أما رجاله واخواته فهم واحد وخمسون رجلا من أهل الديار المذكورة ، غير الرجال الذين آخوه فى الله تعالى وعظموه فى سائر البلاد المصرية وكانوا له مثل أعضائه وجسده سامعين لقوله محبين لامره مؤمنين به مختارين صحبته مؤثرين لحقه معظمين لحرمته »(١٢٨) •

وهذا يعنى أن المهدى ابن تومرت ترك فى مصر قبل عودته من رحلته المشرقيه جبهة قوية عملت على نشر دعوته فى العالم الاسلامى المشرقى • فانتشر أتباع هـذه الجبهـة على صـعيد مصر كلها فى الوجهين القبـلى والبحـرى(١٢٩) •

---

(١٢٨) البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٢٨ .

(١٢٩) يذكرهم البيذق فيقول : أن أول من آمن به بالديار المصرية محمد بن عبد الظاهر الاحميمى ، وعرفه بن جابر ، يونس اللخمى ، شادى بن ثابت ، ثابت القيسى ، عمار بن كثير ، مطرف بن حسام المرشدى ، باشر ابن نويـر ، عبد القادر الافادى ، بصير القليوبى ، مدين بن شعيب ، تميم بن عـوف الاسكندرانى ، عمران بن معافى الانوى ، ظاهر بن يحيى ، نهيان بن شمس ، على بن عبد العظيم ، ياسين بن واثلة ، كامل بن سعد ، ماجد بن مهلب ، شجاع وهمام ربدر بن أولاد الجولى القناوى ، جبريل العابدى ، نجاح بن مقبل ، زيان بن مهيب المرشى ، ذو النون بن مبارك ، على بن نهيان اللخمى ، جابر ومنصور ابنا جرير ، عمارة بن ثابت اليمانى ، نجم بن هلال ، شرف الحجازى ، على بن الطفال ، هشام الاسناوى ، رجاء بن رجاء الدمياطى ، عبد العالم القهارى ، سراج بن نوير البجلى ، فخر بن يسار ، على بن مكى المصرى ، داوود بن عنان الدمشقى ، أدريس بن يوسف بن عيسى العاجى ، قاسم بن الرقام الزهرى ، محمد بن أبى المثنى الهروى ، صالح بن مؤيد ، وافد العنوى ، خالص بن منجى» المصدر السابق ص ٢٨، ٢٩ .

(٣)

الاجهاز على دولة المرابطين

ما كادت الهزائم تتوالى على المرابطين حتى شاع بين الناس قرب سيطرة الخلافة الموحدية على العالم الاسلامى ويؤكد ذلك ما ذكره ابن فرحون فى كتاب الديباج المذهب فى ترجمة أبى الوليد القرطبى : « أنه لما قدم الى مصر هاربا من عبد المؤمن ودولته لما ظهر على المغرب ، ثم خاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز ، فخاف أن يحج فدخل اليمن ، ثم خاف أن يظفر على اليمن فأراد أن يتوجه الى الهند ولكنه مات بزبيد »[١٣٠] .

ولم يكن فى امكان عبد المؤمن بن على تحقيق مشروعه فى التوسع فى اتجاه الشرق ما لم ينته قبل كل شىء من مراكز المقاومة المرابطية ويقضى تماما على خلايا المرابطين فى شرق المغرب الاقصى ثم فى غربه ، فبدأ بتوجيه قوى الموحدين نحو شرق المغرب الاقصى فأوغل بهم حتى وهران[١٣١] ثم عرج منها الى وجدة[١٣٢] ثم فاس[١٣٣] فمكناس(١٣٤) . وبعد أن استزاد من هذه الجهات الشرقية أنصارا جددا ، أقدم على حصار مراكش بقصد انهاء حكم المرابطين بها كلية . ولم يخل الامر ، فى رحلة الموحدين الحربية فى المغرب ، من تكرار تجربة التمييز بين صفوف قواته .

---

(١٣٠) ابن فرحون ، الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، القاهرة ١٣٢٩ هـ ، ص ٣٢٢ . د . العبادى ، المرجع السابق ص ١١٤ .

(١٣١) ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق د . مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٩٨ . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٦ — ١٧ .

(١٣٢) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ١٨ .

(١٣٣) مجهول ، الحلل ، ص ١١١ . أرجع الى رأى ابن عذارى فى سقوط فاس ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(١٣٤) محمد بن غازى العثمانى ، الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ، الرباط ، ١٩٥٢ ، ص ١٦ . الحلل ، نفس المصدر ، ص ١١٢ .

وان نوسع حربيا من هذا القبيل قوامه تكرار سلسلة المعـارك[١٣٥] وتصفيات التمييز ، قد يستهدف استئصال كل أسباب التمـرد والارتداد أو تعبئة قلوب الموحدين بالايمان تماما بالدعوة الموحدية • ولم يكن تحقيق ذلك بالامر اليسير منذ بداية أحداث حصار المرابطين داخـل حاضرتهم مراكش وانقطاعهم عن أنصارهم فى الجهات المغربية الاخرى فى أملاكهم • ولهذا أصبح الوقوف على أحداث هذه المعارك الاولى فى حروب عبد المؤمن لازما للتصديق على هذا التعديل • ولكن يكفينا هنا من تفصـيلات هـذه الاحداث تسـجيل ما دار منها فى وقعـة سـقوط الحـاضرة المرابطية « مراكش » •

(أ) فتـح مـراكش :

فى سنة ٥٤١هـ / ٦ـ١١٤٧م نزل عبد المؤمن بجيشه على جبل الجليز المطل على مدينة مراكش العاصمة المنيعة لدولة المرابطين وأحكم الحصار عليها ، وقد استمر حصاره لها ما يزيد على تسعة أشهر حتى عدمت الاقوات، وانهارت المقاومة وساءت أحوال الاهالى ويذكر ابن عذارى نقلا عن ابن صاحب الصلاة أنه : « لمـا طال عليهم الحصار تسعة أشهر وثمانية عشر يوما هلكوا جوعا من طول هذه المـدة وضاقوا حتى أكلوا الجيـف ، وأكل أهل السجن بعضهم بعضا ، وعدمت الحيوانات وعـدمت الحنطة بأسرها وطلب اسحاق مخازن أبيه فلم يجد شيئا ، قال أبو عبد الله بن عبيدة كاتب

---

(١٣٥) فى تلك المعارك وما صاحبها من تمييز تقول الرسائل : « . . ابتدانا بالنظر فى احوال الموحدين وأحضار الجمع منهم بهذه الحضرة ـ عمرها الله ـ واستوفدناهم قبيلا قبيلا وشعبا شعبا ، وقد تأكد العزم على القيام بأمر اللـه وأعانته على ادلاله وأحيائه دراسة وأقامة عموده ونفى الخبيث من أرجائـه وتصفيته من الشرب وانشائه خلقا جديدا . . اذ كان الفساد قد خالط النفوس ومازج القلوب وأنفته الاهواء . . ونسى كل ربه . . » ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، الرباط ١٩٤١ ، رقم ١٢ ، ص ٤٧ـ٥٥ .

اسحاق : فعجزت عساكر اللمتونيين عن الدفاع والامتناع بضعف العدد والعدة وكثرة الضيق »(١٣٦) .

وكان داخل مراكش عدد كبير من أعيانهم وكبارهم على رأسهم الامير اسحاق بن على بن يوسف وكان بعد صبيا صغيرا ، فأمرهم بالخروج للاقاة لغراة النازحين ، فبرزوا فى نحو ٥٥٠٠ من الفرسان ومن الرجالة مالا يحصى . وعندما اقتربوا من محلة الموحدين خرجت عليهم الكمائن التى أعدها عبد المؤمن فولوا الادبار ولاذوا بالفرار وتدافعوا الى باب دكالة والموحدون من خلفهم يحدقون بالمدينة من جميع جوانبها . ومات فى الكمائن من أهل مراكش مالا يحصى وأتبع السيف سائرهم الى الابواب فقتل بعضهم بعضا بالازدحام . فطال الحصار عليهم واشتد الجهد بهم ولكثرة خيلهم ورجلهم نفذ طعامهم وفنيت مخازنهم حتى أكلوا دوابهم ومات منهم بالجوع أعداد لا تحصى . ثم أمر عبد المؤمن برفع السلالم على السور وقسمها على القبائل فدخلت هنتاتة من جهة باب دكالة ، وصنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين ، وهسكورة مع القبائل من باب ينتان ، فاقتحموا البلد بالسيف ، وتدافقوا داخل المدينة التعسة ، فتحصن الامير اسحاق مع بعض الاشياخ فى قصبتهم المعروفة بقصر الحجر . وأعمل عبد المؤمن ورجاله السيف فى رقابهم ، وكان الأمير اسحاق متخفيا فى كيس الفحم ، فأخرج وسيق هو وخادمه طلحة الى عبد المؤمن ، فظل اسحاق يتضرع لعبد المؤمن ويقول : « مالى فى الرأى شىء » فيقول له غلامه طلحة: « اصمت أرأيت ملكا يتضرع لملك غيره » . ومال عبد المؤمن الى العفو عنه وخادمه لصغر سنهما ، ولكن أغاظ ذلك القول ابن وجاج (أبو الحسن)

---

(١٣٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

الذى صاح بالموحدين : « ويوا ويوا الموحدين .. ارتد علينا عبد المؤمن يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة .. » . فغضب عبد المؤمن وخرج من المجلس وتبعه الموحدون ما عدا أبو الحسن بن واجاج والشيخ أبو حفص(١٣٧) .

فأخذ أبو الحسن اسحاق وقتله ، ثم جذبوا طلحة ليقتلوه ، فقال : « يا عمى أبا الحسن سلاحى ما الذى نفعل به عسى أن أعطيه لك » . فأطلق من تكتيفه ليعطى السلاح ، وكان الخنجر فى وسطه فضرب أبا الحسن وقتله ومات ، ومات طلحة بعده على يد أعوان أبى الحسن . وبقى ثالثهم أبو بكر ابن تيزمت الذى حمل الى عبد المؤمن فقال له : « ألم تعلم أنى خصم لعلى بن يوسف ؟ فقال أعلم ذلك ولكن لاى شىء تقتلنى ، فقال : لانك رميت يدك فى الامام المهدى وحملته الى السجن فقتلتك السنة لاجل ذلك . فقال لهم : اذ عزمتهم على قتلى فأخبركم ان عندى برمتين بهما ذهبا أخاف أن أحاسب عليهما ان تركتهما » . فاختار له عبد المؤمن أمناء يمشون معه وذلك اثنان من كل قبيل الموحدين فسار معهم الى داره فأدخلهم اليها وأغلقها على نفسه وعليهم . بيده عكاز فيه سكين فغدرهم به وكانوا اثنى عشر رجل لم ينج منهم الا رجل واحد(١٣٨) تمكن من الدخول الى جبل اجليز وعرف الموحدون بالخبر ، فهدموا عليه الدار ، وقتلوه وجروه الى الحبل .

وورد فى الحلل برواية ابن صاحب الصلاة أنه لما تحقق لعبد المؤمن فتح مراكش فى ١٨ شوال سنة ٥٤١هـ — ٢٤ مارس ١١٤٧م ودخلها ، رجع

---

(١٣٧) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٢—٢٤ . الحلل الموشية ، ص ١١٢ ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٨٦ . د . سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٦٩٩—٧٠١ .

(١٣٨) الحلل الموشية ، ص ١١٧—١١٨ . البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٦٦ . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٤ . ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص١١٤

فيها الى محلته وجعل الامناء على أبوابها مدة شهرين فاجتمع فيئها وأموالها ، فقسمه على الموحدين ، وقسم عليهم ديارهم ، ثم بيع سبى مراكش بيع العبيد باستثناء زينب بنت يوسف ، فقد استثنوها من البيع لمكان زوجها الامير يحيى بن اسحاق المسوفى المعروف بونزمار « أنجمار » وكان قد ترك قبيلته ودخل فى دعوة عبد المؤمن ، فأعفيت داره من الفيء ، واستولى عبد المؤمن على خزائن على بن يوسف وذخائر لتونة مما يقصر على وصفه اللسان . « وبقيت مراكش ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج .. ،وأبى الموحدون دخولها لان المهدى كان يقول لهم لا تدخلوها حتى تطهروها ، فسأل الموحدون الفقهاء عن ذلك فقالوا لهم تبنون أنتم مسجدا آخر مكان ذلك . فبنى الخليفة عبد المؤمن بدار الحجر مسجدا آخر جمع فيه الجمعة ، وشرع فى بناء المسجد الجامع وهدم الجامع الذى كان أسفل المدينة الذى بناه على بن يوسف[١٣٩] .

وبسقوط مراكش تنتهى الدولة المرابطية فى المغرب بصفة رسمية ويبقى للموحدين السيطرة على بقية أملاك هذه الدولة ، فاذا ما فرغوا منها يمكنهم مواصلة توسعاتهم نحو الشرق ، نحو الخلافتين المتداعيتين فى مصر وبغداد . غير أن دولة الموحدين الفتية لم تلبث أن شغلت باخماد حركات التمرد والثورة الامر الذى أدى الى تأخير دخول قوات عبد المؤمن بجاية الى سنة ٥٤٧هـ — ١١٥٢م والمهدية الى سنة ٥٥٥هـ — ١١٦٠م .

(ب) الثورات ضد المهدية :

ولم يقف خطر الثورات التى اشتعلت فى المغرب على تهديد الكيان السياسى والعسكرى لدولة الموحدين ، بل امتد هذا الخطر الى المساس

---

(١٣٩) الحلل الموشية ، ص ١١٨ .

بفكرة المهدية ذاتها وصلاحية الموحدين لها ولحروبها الجهادية ومن ثم لخلافتها الاسلامية العامة . ويتضح ذلك من ثورة ابن هود السلاوى(١٤٠)، وهو محمد بن عبد الله بن هود الماسى مدعى المهدية ، فى رباط ماسة عام ٥٤١هـ / ١١٤٦-٧م . وكان ابن هود فى البداية من أتباع عبد المؤمن وشهد معه فتح مراكش ثم ارتد عن الطاعة ودعا لنفسه بعد استخلاف عبد المؤمن. ويذكر ابن عذارى أن جموعا كثيفة من البربر ساندته ويعبر عن ذلك بقوله: « وفى غرة شوال من السنة المؤرخة » ويعنى سنة ٥٤١هـ « فأقبل الناس المغترون به من كل مكان وقبيل اليه ، فاجتمعوا بشقاوتهم عليه اجتماعا طار له الذكر فى الافاق وتحدثت به الرفاق ، وكثروا عنده واستندوا له ، فقامت بدعراته جموع لا تحصى ... وأتته دعوته فى جميع العدوة حتى لم يبق منها الا مراكش وفاس وارتدت سائر البلاد كلها »(١٤١) . وقد دخل فى طاعة المهدى الماسى أهل سبتة وطنجة وسجلماسة ودرعة وقبائل دكالة وحاحة وهسكورة الوطاء ورجراجة وقبائل تامسنا وهوارة(١٤٢) .

ويمكننا تقدير حجم هذه الثورة وخطورتها عندما نقف على الارقام المغالى فيها عن عدد أنصارها المقاتلين فى الجهات المختلفة . ففى دكالة بلغ

---

(١٤٠) يذكره البيذق باسم آخر هو عمر بن الخياط ، أخبار المهدى ، ص ١٠٦ .

(١٤١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٦ . راجع أيضا : ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٣٢ . مجهول ، الحلل الموشية ، ص ١٢١ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

(١٤٢) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ١٠٧ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٨٠ . السلاوى ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

عددهم عشرين ألف فارس ومائتى ألف راجل[١٤٣] . وللقضاء على الماسى أرسل اليه عبد المؤمن من قواده أبا زكريا يحيى بن أنكمار المسوفى فهزمه الماسى . فأرسل اليه الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، الملقب بسيف الله المسلول تشبها بخالد بن الوليد فى « جيش خشن من فرسان ورجاله »[١٤٤] حسب تعبير ابن الخطيب . فانهزم الماسى وبدد شمله وفرقت قوته فى شهر ذى الحجة سنة ٥٤١هـ ، ثم اتجه أبو حفص عمر وأشياغ الموحدين الى سائر نواحى المرتدين عن الطاعة فهزموا جزولة وهسكورة وبرغواطة ولم يلبث أهل سلا أن عادوا الى بذل الطاعة لعبد المؤمن[١٤٥] .

وتشبه هذه الثورة المهدوية فى ماسة ، ثورة قامت فى عرب الاندلس على المرابطين وأعنى بها ثورة المريدين أتباع ابن قسى[١٤٦] وفيها أدعى

---

(١٤٣) يقول صاحب الحلل : سار عبد المؤمن فى أمم لا تحصى من الخيل والرجل والرماة ، وكان أهل دكالة لا رامى عندهم ، ولما اصطفوا وتأهبوا للقتال جاءهم من ناحية اخرى غير الناحية التى اعتقدوها فانحل نظامهم وفل جمعهم وخرجوا عن وعر الموضع الذى كانوا به فالجأهم السيف الى البحر فقتل أكثرهم فى الماء واخذت ابلهم وغنمهم وأحوالهم وسبى أولادهم وانتهى البيع فيهم الى بيع المرأة بدرهم والغلام بنصف درهم « الحلل » ، ص ١٢١—١٢٢ .

(١٤٤) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٢٧١ . انظر أيضا الرسالة الخاصة بمقتله فى : كتاب الوثائق ، وثيقة رقم ٨٥ ، ص ٢٤٣—٢٤٥ .

(١٤٥) البيذق ، اخبار المهدى ، ص ١٠٧ . ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٤٨٠ .

(١٤٦) هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسى ، ينتهى جده الى أصل نصرانى ، ولد فى مطلع القرن ٦ هـ بأحواز شلب ونشأ بها ثم اشتغل بالعمل الحكومى وسئمه فتركه وانكب على دراسة التصوف والتعمق فيه ومال الى الزهد فاخشوشن وتقشف ثم جال فى الاندلس والتقى بشيخ الصوفية أبى العباس بن العريف بالمرية ، ودرس عليه أصول التصوف حتى ألف فيه ثم عاد الى قرية جلة من أعمال شلب وبنى بها رابطة للعبادة ودراسة التصوف فكثر

ابن قسى المهدوية وتلقب بالامام تشبها بالامام المهدى بن تومرت تقليدا له ولمواقفه فى المغرب ضد المرابطين • ومن ثم كانت ثورته أصلا على المرابطين وحكمهم بالاندلس • وانضم الى ابن قسى فى ثورته عدد من زعماء غربى الاندلس أهمهم ابن القابلة وابن وزير وابن المنذر وابن الحجام فى بطليوس والبطروجى فى لبلة(١٤٧) •

وقد حاول ابن قسى ايجاد علاقة صداقة وقربى مع عبد المؤمن عندما لاح له عزم الموحدين على غزو الاندلس • وفشلت محاولته بسبب الرسالة التى بعث بها ابن قسى الى عبد المؤمن ناعتا نفسه فيها بالامام المهدى ، فأنكر عليه عبد المؤمن ذلك على أساس أن الامامة والمهدوية قاصرة على مهدى الموحدين • وكانت الرسالة فى حد ذاتها حافزا للموحدين على مبادرتهم بنقل ميدان المعركة الى الاندلس •

مريدوه . وكان عرفا بطرق التأثير على الجماهير فادعى الولاية والهداية وابتدع كثيرا من "خوارق والشعوذة التى افتتن الناس بها ، واعتمد عليها فى ثورته . (ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق د. مؤنس ، ج٢ ، ص ١٩٧ — ٢٠٢ . عنان ، عصر المرابطين ، القسم الاول ، ص ٣٠٧ ، علام ، الدولة الموحدية . ص ١٤٧) .

(١٤٧) الاول هو محمد بن يحيى الشلطيشى ويعرف بابن القابلة ، وكان يلقب بالمصطفى ، والثانى أبو محمد سراى بن وزير عميد أهل يابرة . والثالث هو أبو الوليد محمد بن المنذر ، من أعيان شلب وفقهائها ، برز فى الادب وتولى خطة الشورى وتركها ثم انزوى وتزهد وانضم لطائفة المريدين اتباع ابن قسى وقام بالدعوة فى شلب . والرابع هو محمد بن على بن الحجام أحد زعماء المريدين فى بطليوس ، والخامس هو يوسف بن أحمد البطروجى أحد زعماء المريدين فى لبلة . (ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٠—٢٥١ . د. سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٧٠٢ — ٧٠٣ . عنان ، المرجع السابق، ص ٣٠٨ ، علام ، نفس المرجع ، ص ١٤٧—١٥٣) .

وحدث بعد سوء طالع المريدين وفشلهم فى الاستيلاء على قرطبة ومن قبلها اشبيلية[١٤٨] أن نشأ نزاع بين مهدى المريدين ابن قسى وبين تابعه سدراى بن وزير (أمير باجة) مما حدى بابن قسى للتخلص منه على يد أخلص أتباعه ابن المنذر (أمير شلب الذى لقبه ابن قسى بالملك العزيز بالله) ، وانتهى النزاع بينهما بهزيمة ابن المنذر ، الامر الذى قوى من ساعد بن وزير واستولى على مدينة شلب وميرتلة[١٤٩] ، وأعلن خلع ابن قسى والدعوة لابن حمدين صاحب قرطبة[١٥٠] وكان هذا الخلاف السبب فى فرار ابن قسى الى المغرب ولجوئه الى عبد المؤمن فى عام ٥٤٠هـ أو ٥٤١هـ[١٥١] بعد أن شمله بعفوه عسى أن يستفيد منه بدوره فى القضاء على حكم عدوهما المشترك يحيى بن على بن غانية المسوفى فى قرطبة[١٥٢] .

قامت الثورة فى شرق الاندلس ، وكانت أشد عنفا ، وأصعب مراسا ، وأطول زمنا ، من قاعدتها بلنسية فى عهد واليها المرابطى عبد الله بن غانية ،

---

(١٤٨) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٢٠٣—٢٠٤ .

(١٤٩) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥١ ، د. سالم ، تاريخ المغرب ص ٧٠٢—٧٠٣ .

(١٥٠) هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين ، ينتمى الى بيت عربى عريق ، تعلم بقرطبة ، عمل بالقضاء حتى تولى منصب قاضى قضاة قرطبة سنة ٥٢٩هـ . اختلف ابن حمدين مع المرابطين فعزل من القضاء سنة ٥٣٢هـ ، وبعد الفتنة فى قرطبة عين قاضيا للمرة الثانية سنة ٥٣٦هـ وظل بالقضاء حتى قيامه بالثورة فى عام ٥٣٩هـ . وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين .
ابن الآبار ، نفس المصدر ، ص ٥٢—٥٣ .

(١٥١) ابن الابار ، نفس المصدر ، ص ٢٠٠—٢٠١ . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٢٣٥ . ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥١ .

(١٥٢) هو أبو زكريا يحيى بن على بن غانية المسوفى ، كان واليا على قرطبة ، مشرفا على شئون الاندلس وقائدا عاما للجيش المرابطى . دافع عن قرطبة ضد قوات قشتالة وحليفهم ابن حمدين عام ٥٤٠هـ ١١٤٥م حتى توقيع الهدنة معهم ، ثم نقضها وقرر اعلان طاعته للموحدين وتوفى فى ٢٤ شعبان ٥٤٣هـ — ٧ يناير ١١٤٩م . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٢٣٥ .

الذى فر الى مدينة شاطبة عندما شعر بقرب الثورة . وتولى زعامة الثورة ابن عبد العزيز بالحاح من عبد الله بن مردنيش ، وعبد الله بن عياض (قائد الثغر) فى سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م)[١٥٣] . ومع تطور الاحداث ، خاصة بعد ثورة مرسية تولى ابن عياض أمر شاطبة ثم مرسية ، وجعل صهره عبد الله بن مردنيش واليا على بلنسية ، وجعل الدعوة للامـير « سيف الدولة بن هود » ، وبعد مقتل ابن مردنيش وابن هود فى سنة ٥٤٠هـ عدا ابن عيـاض الحاكم فى شرق الاندلس حتى لقى مصرعه سنة ٥٤٢هـ — ١١٤٨م[١٥٤] ، وتولى الامر من بعده محمد بن سعد بن مردنيش[١٥٥] .

وحدث أن انتصرمحمد بن سعد بن مردنيش فى أوائل سنة ٥٥٦هـ — ١١٦١م على يد الموحدين قرب قرطبة حيث قتل القائد الموحدى ابن بكيت. وأعقب ابن مردنيش انتصاره بانتزاع مدينة قرمونة من الموحدين فجـرد عبد المؤمن فى أثر هذه الهزيمة جيشا لعبور الاندلس قاده الشيخ أبى محمد

---

(١٥٣) هو القاضى ابو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمـرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عيـاض اليحصبى السبتى ، كان امام وقته فى الحديث وعلومه والنحو واللغة . دخل الاندلس طالبا للعلم ، فأخـذ بقرطبة عن جماعة ، استقضى ببلده سبتة ثم نقل عنها الى قضاء غرناطة . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٣ ، رقم ٥١١ ؛ ص ٤٨٣—٤٨٥ . أما عبد الله بن مردنيش فهو صهر القاضى ابن عياض ، وعم محمد بن سعد بن مردنيش بطل ثورة شرق الاندلس .

(١٥٤) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٢٢٠ . ابن خلكان ، المصـدر السابق ، ص ٤٨٥ .

(١٥٥) يذكر المراكشى أن ابن مردنيش كان خادما لابن عياض ، يحمل له السلاح . المعجب ، ص ١٣٥ . هو محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامى التجيبى ، ولد فى أحواز طرطوشة سنة ٥١٨هـ كان والده سعد بن محمد حاكما لافراغه من قبل المرابطين ، كما كان عمه عبد الله بن مردنيش واليا على بلنسية من قبل ابن عياض . كنى بابن مردنيش . ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج٢ ، ٨٥ .

عبد الله بن أبى حفص ، فاستعاد قرمونة فى المحـرم من سـنة ٥٥٧هـ ـ ديسمبر ١١٦٢م • غير أن ابن مردنيش وحلفاءه تمكنوا من ايقاع الهزيمة بقوات أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن فى أحواز غرناطة وأخذوا يضيقون الخناق على غرناطة ويهددون قلعتها الحمراء(١٥٦) •

وأمام هذه الانباء المزعجة بادر عبد المؤمن بتجهيز جيش متميز من خيار جنده عدته ما يقرب من ٢٠ ألف مقاتل منهم عـدد كبير من أشياخ الموحدين • وأسند قيادة هذا الجيش الى ابنه أبى يعقوب يوسف ، والشيخ أبى يعقوب يوسف بن سليمان • فاتجه هذا الجيش صوب غرناطة ووصل قرب جبل السبيكة والحمراء فى شهر رجب سنة ٥٥٧هـ ـ يوليو ١١٦٣م ، حيث دارت المعركة المسماه بوقعة السبيكة وانتهت بهزيمة ساحقة منى بها ابن همشك صهر ابن مردنيش • وأعقبها دخول الموحـدين غرناطة فى ٢٨ رجب من نفس السنة ١٣ يوليو ١١٦٣م • وفر ابن همشك الى شقورة بينما هرب ابن مردنيش الى محلته بجدرة(١٥٧) •

---

(١٥٦) يعرض ابن الخطيب صورة واضحة لهزيمة الموحدين فيقـول : « .. واعترضت الفل تخوم الفدادين وجداول المياه التى تتخلل المرج فاستولى عليهم القتل ؛ وقتل فيها السيد ابو محمد .. ودخل ابن همشك الى غرناطـة بجملة من الاسرى افحش بهم المثلة بمرأى من اخوانهم المحصـورين » ، ص ٣٠٩ ، انظر ايضا :

— Marcel Peyrouton; Histoire Général du Maghreb, p. 98.

(١٥٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٣ ، ص ٥٢ـ٥٣ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ١٩٥ـ٢٠٠ . وابن همشك هو ابراهيم ابن محمد ابن مفرج بن همشك ، وهو مثل ابن مردنيش شخصية تتميز بصفاتها الخاصة ، وهو من أصل نصرانى ، فجده مفرج أو همشك نصرانى نزح الى سرقسـطة ، واسلم على يد أحد ملوك بنى هود فى أواخـر أيامهم ، وكان مقطوع احـدى الاذنين ، فكان النصارى اذا رأوه فى القتال عرفوه وقالوا « هامشك » ، ويقول لنا ابن الخطيب أن معنى هذه العبارة تعنى « ترى مقطوع الاذن » الاحاطة ؛

وبوصول أخبار هذا الانتصار الى مسامع عبد المؤمن ، سارع بارسال كتب الفتح والاعلام بالنصر والاحتفال به • وتطورت مسألة الاندلس فى حروب عبد المؤمن الى قضية جهاد عام فى أراضيها وعمل على تعبئة جيش كثيف لهذا الغرض لا سيما عندما بلغه قيام القشتاليين بالهجوم على مدينة باجة فكتب الى جميع بلاد المغرب والقبلة وافريقية والسوس وجميع القبائل يستنفرهم الى الجهاد ، فأجابه خلق كثير ، فاجتمع له من عسكر الموحدين والمرتزقة من قبائل المغرب وقبـائل زناتة أزيد من ثلاثمائة فارس ، ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس ومئة ألف راجل : فضاقت بهم الارض ، وانتشرت المحلات والعساكر فى أرض سلا من عين غبولة الى عين خميس واستدارت راجعة الى حلق المعمورة ، فلما استوفت لديه الحشود وتكاملت لديه الجنود والوفود ، ابتدأه مرضه الذى توفى منه »(١٥٨) •

ولم يقدر لعبد المؤمن تنفيذ مشروعه الجهادى فى الاندلس بسبب مرضه الذى لازمه حتى وفاته فى ١٠ جمادى الآخـرة سـنة ٥٥٨هـ — ١٥ مايو ١١٦٣م • وكانت هذه الوفاة المبكرة عائقـا حال دون تحقيق الخـلافة الموحدية أهدافها التى ترمى الى التوسع نحو المشرق الاسلامى • بـل ان انشغال عبد المؤمن بمحاربة بقايا المرابطين فى المغـرب والاندلس ، أعاق

ج١ ص ٣٠٥—٣٠٧ . وتحول ابن همشك الى قشتالة ، وخـدم ملكها ثم ترك خدمة النصارى ، ونزح الى الاندلس ، وخدم المرابطين ، والتحق بخـدمة ابن غانية . ومع توالى الاحداث فى شرق الاندلس اتصل ابن همشك بابن عياض ، ولمـا آلت بلنسية ومرسية الى ابن مردنيش اتصل به وصاهره . الاحاطة ، نفس الصفحة . المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٥ .

(١٥٨) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٠٢ . انظـر ايضا ، ابن ابى دينار ، المؤنس ، ص ١١٧ . السلاوى ، الاستقصا ، ج٢ ، ص ١٤٣ . وعن وفاته وأقوال المهدى فيه وامتداد ملكه راجع ابن خلكان ، ج٣ ، ص ٢٣٩ . وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٣٦٣ .

التوسع الموحدى فى المغرب ذاته وهو ما يهم أساسا موضوع العلاقات مع المشرق الاسـلامى •

والواقع أن الدعوة الموحدية التى نادى بها المهدى محمد بن تومرت كانت تستهدف أمرين الاول تحقيق الهدف البعيد وهو بسط سيادتها على العالم الاسلامى المختل ، والثانى الجهاد ضد المتمردين والمارقين تمهيـدا للجهاد الاعظم ضد أعداء الاسلام •

غير أن الجهاد ضد المارقين والثوار أيام المهدى وخليفته استغرق جانبا كبيرا من وقت الموحدين وجهودهم واستنفذ قدرا كبيرا من قوتهم على حساب الجهاد الاعظم • ومن المعروف أن حروب المهدى وخليفته عبد المؤمن استمرت نحو أربعين سنة(١٥٩) وهى فترة طويلة اذا قيست بعهود الحكام وأعمـال البشر •

(٤)

توسـع دولة المـوحدين نحـو الشرق

بدأ الخيط الاول فى حروب عبد المؤمن باتجاه الشرق منذ أن اتخـذ بقايا المرابطين بالاندلس وحلفاؤهم الهلالية من بجاية قاعـدة لمقـاومة الموحدين • ولكن رحلة عبد المؤمن الحربية نحو الشرق حتى حـدود مصر الغربية كان لها أن تكرر رحلة ابن تومرت الدراسية التى بدأها بالاندلس وانتقل منها الى الشرق الاسلامى • وقد شرع عبد المؤمن نفسه فى القيام بها فى شبابه ولكن لم يقدر له أن ينفذها بسبب اثناء المهدى له عن ذلك لقاء

---

(١٥٩) استغرقت تلك الحروب على وجه الدقة ثلاثا وثلاثين سنة وثمانية أشهر وخمسة وعشرين يوما من حين وفاة المهدى حتى وفاة عبد المؤمن •

الامل فى اتخاذه خليفة له • ولا مجال هنا لتكرار الاسانيد التاريخية الدالة على جاذبية الشرق الاسلامى فى الفكر المغربى وأحداثه • غمن بداهة القول تكرار الاشارة الى سحر الشرق ومغناطيسه الجاذب فى أحداث المغرب منذ دخول المغرب فى فلك الدولة الاسلامية • فقد سبق للمرابطين أن ولوا وجوههم شطر المغربين الاوسط والادنى لولا صلة القرابة التى تربطهم بالزيريين الصنهاجة • كما سبق أيضا للفاطميين أن تطلعوا نحو الشرق الاسلامى ونجحوا فى محاولتهم الرابعة ، وكان ذلك لاصل فى ظهور القاهرة التى لعبت وما تزال بأوتار السياسة العالمية • وقد سبق الاشارة الى آثار رحلة ابن تومرت ومدى نجاح دعوته فى الشرق •

(أ) الحملة على بجاية :

فى رسالة أوردها ليفى بروفنسال من انشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية موجهةمن الخليفة عبد المؤمن الى الشيخ أبى زكريا يحيى بن على بن غانية يدعوه فيها الى التوحيد بتاريخ ٩ ربيع الثانى سنة ٥٤٣هـ • يحاول عبد المؤمن عن طريق اللين والترغيب والاستمالة ايقاف حمئة ابن غانية العدائية ضد الموحدين والانخراط تحت راية الموحدين كما فعل أسلافه من قبيلة مسوفة ، الذين اعترفوا بالمهدى وأقروا رياسته فيقول : « وهذا الامر هو أمر المهدى حق فتأمل ، ومع معالمه الجلاء فلا ظن ولا تخيل ، والمهدى قد بشر به النبى فى غير ما حديث ، وظهرت علاماته ، وآياته فى قديم مزاره وحديث ، ودل على اسمه وزمانه وفعله ومكانه •• وما خص الله به مسوفة الذين هم من قبيلتكم وفصيلتكم قام ودهم له فى مواطن الصفا وقبلته ،

وهاجروا اليه وهجـــروا ســـواه • فهـــو آلفهم بفضـــل الله عليهم وهـــم ألافه »[١٦٠] •

غير أن بنى حماد الصنهاجيين[١٦١] رفضوا الدعوة وظلوا يتمسكون باستقلالهم منذ أن أعادوا تأسيس بجـــاية عام ٤٥٧هـ ـــ ١٠٦٥م على يد أميرهم الناصر بن علناس بن جهاد[١٦٢] (٤٥٤ ـــ ٤٨١هـ/١٠٦٢ـــ١٠٨٨م) وهم فى كفاح من أجل الحفاظ عليها ، سواء فى مراحل هجوم العرب الهلاليين أو أثناء رفضهم التبعية للمرابطين •

ومع قيام دولة الموحدين ، لحق بدولة بنى حماد أكثر من خطر كاسح: فالنورمان يوجهون هجومهم على افريقية مقر بنى باديس الزيريين (أبناء عمومة الحماديين) ويستولون على مدينة المهدية وسفاقس وسوسة فى سنة ٥٤٣هـ ـــ ١١٤٨م ويعيثون فسادا على طول الساحل التونسى حتى يقاربوا مملكة بنى حماد • والمرابطون اللاجئون اليها يستهدفون تحويلها الى قاعدة

---

(١٦٠) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، الرباط ، ١٩٤١ ، رسالة ، رقم ٤ ص ٦ـــ١٠ •

(١٦١) هى ثانية امارة نظامية تنشأ بالمغرب الاوسط على يد حمـــاد بن بلكين بن زيرى الصنهاجى ، كان عاملا من قبل أخيه باديس بن المنصور بن بلكين أمير المغرب الادنى على مدينة أشير . استقل بجهته وبنى القلعة المنسوبة الى أسرته (قلعة بنى حماد) عام ٣٩٨هـ ـــ ١٠٠٧م . وبعـــد منازعات بينه وبين السلطة الشرعية فى القيروان أعلن حماد انفصالها عنها فى (٤٠٥هـ ـــ ١٠١٤م) فانقسم بنو زيرى الى : بنى باديس بالقيروان وبنى حماد بالقلعة ، قامت بينهما حروب تلتها المصالحة والمهادنة . انظر : عبد الوهاب بن منصـــور ، قبـــائل المغرب ، ج١ ، ص ١٤٤ .

(١٦٢) ولهذا سميت بجاية الناصرية نســـبة الى الناصر بن علناس (د. ســـالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٧٠٦ ، د. ســـالم ، المغـــرب الكبير ، طبعة ١٩٦٦ ، ص ٦٨٣ـــ٦٨٥ .

لعملياتهم العسكرية ضد الموحدين فى مشروع حلف يضمهم مع بنى غانية المسوفين أصحاب البيـــار(١٦٣) .

كان الامير يحيى بن عبد العزيز بن المنصـــور بن الناصر بن علناس منهمكا فى ملذاته مستغرقا فى لهوه غير عابىء بأمـــور دولته ، كان وزيره ميمون بن حمدون متنبها الى الاخطار المحيطة ببجاية ورأى فى الاستجابة للدعوة الموحدية سبيلا لانقاذ هذه المدينة من تلك الاخطار فكاتب الخليفة الموحدى عبـــد المؤمن فى السر يرغبه فى بجـــاية باسم انقـــاذ المســـلمين فيهـــا(١٦٤) .

وجاءت دعوة ابن حمدون لفتح بجاية فى وقت اشتغل فيه عبد المؤمن بتصفية تمييز جديدة فى صفوف قواته ، وهى الحـــادثة المعروفة بعمليـــة الاعتراف(١٦٥) . فقدمت دعوة بجاية ، لسياسة التمييز الموحدى فى حادثتها الجديدة ، السند الجهادى المنشود للتخفيف من آثارها . ومن قبل ، كان شخص المهدى وحده يجب أى سند مطـــلوب لتبرير سياســـة التمييز فى أحداثها التى وقعت بحروب الموحدين الاولى . ولكن الامر يتعلق هذه المرة بخليفة المهدى ومدى الاعتراف بخلافته(١٦٦) . وعندما ينهض بحملة فتـــح

---

(١٦٣) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٤ ، ص ٨—١٠ .

(١٦٤) عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج١ ، ص ١٤٥ .

(١٦٥) ليست هذه العملية التى أقدم عليها عبد المؤمن الا تصفية همجيـــة تمت فى عام ٥٤٤هـ — ١١٤٩م كما يذكرها ابن عذارى (البيان ، ج٣ ، ص ٢٨). ولا يشبهه فى شناعته وفظاعته الا التمييز الذى نفذه المهدى محمد بن تومـــرت على يد عبد الله بن محسن الونشريسى المعروف بالبشير بهـــدف ازالة ما حاق بالموحدين من التخليط ، ويذكر البيذق تفصيلات عن ذلك الاعتراف وعدد من قتل من كل قبيلة فيه بسبب قتل مكناسة الفحامين فى جبلهم (أخبار المهـــدى ، ص ٦٩ — ٧٢) .

(١٦٦) ارجع الى الصفحات السابقة (ص ٩١—٩٣) .

بجاية ، فهو يحقق أملا كبيرا فى الفكر الموحدى يتعلق بالشرق والاتجاه بالفتوح الموحدية نحو بلدانه يوحدها داخل بوتقة فلسفته ويضم أشتات دولها فى نطاق دولة الموحدين الكبرى .

وواضح من تكتم الموحدين لوجهة حملة بجاية أن حروبهم فى الاندلس لم تكن قد حسمت بعد ، وأن عبد المؤمن آثر الانتقال بحروب الموحدين الى الشرق بمجرد وصول دعوة بجاية . وفى سبيل تحقيق حملة بجاية ، عمد الى التمويه فى خططه العسكرية . فعندما فرغ من اعترافه السابق اتجه ناحية سلا وأمر ببناء أساس مدينة الرباط ، وكان يعول على الخروج منها الى بجاية عن طريق المعمورة الى الهبط — ناحية جبالة الواقعة بين الريف والمحيط الاطلسى — موهما فى اعلانه أنه متجه الى الاندلس . وبلغ من تكتمه أنه أمر بقطع الطريق عن المارة فى جميع الاتجاهات التى تؤدى الى جهة الشرق وعين عليها مراقبين أو أمناء لمراقبة الطريق ، بل وصل به الامر الى حد معاقبة كل من يتفوه ولو باشارة عن هدف تلك المحلة[١٦٧] .

ويصف ابن أبى زرع الطريق الذى سلكه عبد المؤمن فى حملته على بجاية[١٦٨] ، بدءا من فاس الى نهر ملوية ثم تلمسان التى أقام بها يوما واحدا ، ومنها الى الجزائر التى دخلها على حين غفلة ، فخرج الامير الحسن بن على بن يحيى بن تميم وكان قد انتقل اليها بعد سقوط المهدية فى

---

(١٦٧) يقول البيذق : « وعندما نزل الى شبريط .. كان أمامه عبيد يلعبون ، منهم ميمون أغزاف ، فأنطق الله على لسانه بطول أجله ، فقال كذا نفعل يا أمير المؤمنين فى بجاية ان شاء الله . فقال له الخليفة تكتف ، فأمر به فقتل » (أخبار المهدى ، ص ٧٤) وورد فى الحلل الموشية ، أن مناديا نادى : « أيها الناس من تكلم منكم بكلام معناه الى أين هذا السفر فجزاؤه السيف » ص ١٢٣ .

(١٦٨) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٩٣ .

أيدى النورمان • فتلقاه عبد المؤمن بحفاوة بالغة[١٦٩] وفر عاملها الى بجاية ، وأخبر حاكمها يحيى بن العزيز بمقدم عبد المؤمن واستيلائه على الجزائر • ولم يمض عهد قصير حتى وصلت جيوش عبد المؤمن الى بجاية ودخلها بعد الفتح أبو محمدميمون بن على المعروفبابن حمدينوفتح أبوابها للموحدين، وتم توحيده وأصحابه • وفر الامير يحيى بن العزيز الى قسنطينة ، فدخل عبد المؤمن بجاية وتم تطهيرها وتوحيد أهلها[١٧٠] •

وما أن تم لعبد المؤمن السيطرة على بجاية حتى واصل زحفه الى قلعة بنى حماد معقل الحماديين الاعظم وحصنهم الامنع ، فاقتحمتها قوات الموحدين عنوة ، ودمرت عمائرها وضربت عمرانها وأضرمت فيها النيران ، وسقط واليها جوشن عبد العزيز وابن الدحامس من الاثيج ، وبلغ عدد القتلى بها نحو ١٨ ألفا[١٧١] • ثم ان عبد المؤمن قلد على الجزائر وبجاية والقلعة وأعمالها ابنه عبد الله بن عبد المؤمن ورتب معه من سيتولى الدفاع عنها من قوات الموحدين ثم قفل عائدا الى مراكش[١٧٢] وبصحبته الحسن بن على •

(ب) حمـلة سطيف :

بينما كان عبد المؤمن فى متيجة فى طريق عودته من الحملة الاولى الى

---

(١٦٩) البيذق ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ . ابن أبى زرع ، المصدر السابق ؛ انظر أيضا ، د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٩٢—٧٩٣ .

(١٧٠) د. سالم ، المغرب الكبير (١٩٦٦) ص ٧٩٣ .

(١٧١) ابن خلدون ، العبر ج٦ ، ص ٤٩١ . د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٩٣ .

(١٧٢) د. سالم ، المغرب الكبير ص ٧٩٣—٧٩٤ . د. سالم ، تاريخ المغرب ، ص ٧٠٧—٧٠٨ .

مراكش ، وصلته الانباء بقيام عرب الاثبج ورياح وزغبة فى سطيف[١٧٣] بالثورة على عبد الله ، ومحاولتهم اعادة دولة بنى حماد ، فسير الى ولده مددا بقيادة يصلاسن بن المعز وعبد الله بن وانودين صهر عبد المؤمن ، ولكن لاختلاف وقع بينهما تمكن العرب من قتل عبد الله وأرغموا يصلاسن على الهرب فاقدم عبد المؤمن على اجراء تمييز أعقبه بدفع جميع جيش الموحدين الى العرب • ونهاهم عن الاشتغال بالمغانم والمكاسب حتى لا تهزمهم العرب ، بل أوصاهم اذا سمعوا العرب تقول الرواح الرواح ، بضرورة اتباعهم وتتبعهم الى القضاء عليهم • وكان ما كان من هزيمة العرب وأسر بعض شيوخهم من بينهم ديفل بن ميمون ، وحباس بن الرومية ، وابن زيان ، وأبو قطران ، وأبو عرفة ، والقائد بن معروف فسيقوا الى مراكش ، ثم ردت اليهم نساؤهم وأطفالهم وأموالهم بعد أن أعلنوا طاعتهم له فى سنة ٥٤٧هـ — ١١٥٣م • وأعادهم الى افريقية معززين بعد أن أكرمهم وبالغ فى الحفاوة بهم[١٧٤] •

وقد وجه عبد المؤمن رسالة الى الشيخ أبى محمد وسنار وأهل مراكش يعلمهم بعزوته فى البلاد الشرقية وانتصاره على العرب بناحية سطيف • ويرى أن هذا الفتح التناسق والتتابع وتذليل الصعب وتقريب الشاسع • ويصور حال العرب فى تعبير يقول : « •• وقد قذفتهم الغلبة الى صحرائها، ونبذتهم الروعة بعرائها ، وحدثتهم حال الكثرة المهدية عن كماتها وضرائها،

---

(١٧٣) تظهر لنا قصة سطيف عن شدة تأثره بالمهدى فى حب سفك الدماء بل والقضاء على المعارضة بجميع أشكالها من دفع خيله وخيل الموحدين قبر سطيح فوق الطريق فى ربوه ، وحك خيله هذا القبر ، وقال لهم : « أتعرفون ما قال صاحب هذا القبر ؟ قالوا : أنت العارف بذلك ، فقال لهم : قال أزيلونى عن هذا القبر لئلا تدرسنى خيل عبد المؤمن بن على الكومى » . أخبار المهدى ، ص ٧٤ . (القبر السطيح هو القبر المرتفع وأعلاه مسطحا) .

(١٧٤) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٧٦ .

فصاروا بين تدافع الحيرة والتيه ، وتراجع التخييل والتمويه ، مظهرين الانابة الى المتاب ، متكررين فى أكثر الاحيان على مراتب الشك والارتياب »(١٧٥) .

كما وصفهم بالجهال مرة والاشقياء مرة أخرى فهم « .. الذين يخاطبون جميع من ببلاد افريقية وما يتصل بها الى جهة الاسكندرية من العرب المغررين بغوامر الجهالة ، المغمورين بأوامر الضلالة ، فخاطبه الاستصراخ والاستنجاد ويراسلونهم مراسلة الاستعانة والاستمداد ، ويستدعونهم لمعنى الانتصار على الموحدين والاعتضاد .. وأقبل جميع من ذكرناه لكم من أعراب تلك البلاد النازحة قبائل هلال بنى عامر من عرب اليمن ، وشعوب الحروب والفتن ، بقضهم وقضيضهم ، عاملين على اغواء اخوانهم الضالين وتحريضهم ، نافرين أفواجا بعد أفواج بغاية عزمهم ونهاية نهوضهم .. فلم تزل جيوشهم على جهات قسنطينة تتوارد وكتائبهم تتعاقد على الاعتزام وتتقاعد .. والموحدون مقبلون على ما أمروا به من ارتحالهم الى العرب .. وقتالهم بوادى الاقواس بجهات سطيف ، وكذلك فى متيجة .. وأكلتهم والتقمتهم الحرب الزبون ، وكابد الهول الكبار جميع فرسانهم وأعيانهم ومن يدعى البطالة والحماسة من أمرائهم وكبرائهم . وأختلطوا بموتاهم اختلاط الانعام بالانعام .. وحاق الويل بهلال بن عامر . ويحف تتبع الجيش الموحدى لهم حتى أوائل بلاد افريقية وما يجاورها ، ولم يروا لبقية المارقين أثرا »(١٧٦) .

---

(١٧٥) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٩ ، ص ٢٦—٢٧ .

(١٧٦) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٩ ، وهى رسالة طويلة مؤرخة فى سنة ٥٤٨هـ ، ص ٢٧—٣٤ .

على أن هزيمة العرب ، المعلنة بهذا الاسلوب التشهيرى الوارد فى رسالة عبد المؤمن ، لم يعقبها تسليم قبيلة صنهاجة الحمادية بهزيمتهـا • فحاولت الثأر باتفاقها مع حلفائها من قبائل لواتة وكتامة تحت قيادة أبـى قصبة من بنى زلدوى ، وكان من أشد الثوار مناهضة لعبد المؤمن • وتلاقت هذه الجموع مع جيش عبد المؤمن (١٧٧) ، وفيها انكسرت صنهاجـة وحلفاؤها وقتل أبو قصبة ، وأستتب الامر للموحدين فى بجاية ونستبعد أن يكون عبد المؤمن قد قدم على رأس قوات الموحدين اذ أنه لم يعـاود الخروج الى افريقية الا فى سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م • وقد تكون هذه المعركة قد وقعت أثناء قفوله من حركته الاولى سنة ٥٧٤/١١٥٣م وهو الارجح •

فقد أوصى قبل عودته الى مراكش أهل بجاية فى رسالة وجهها اليهم باقامة الحدود وحفظ الشرائع واظهار الحق بلزوم الواجبات • وتعرف هذه الرسالة برسالة الفصول وفيها يركز على التقيد بالشرع والعمل فى أمـر الدين والدنيا باللازم الواجب ويشمل هذا الالزام الرجال والنساء والاحرار والعبيـد •

وتتصف الرسالتان المذكورتان بطولهما والتفصيل فى موضوع كـل منهما مع قصر مادة الرسالة الاولى على أخبار انتصاره على العرب وصفات التحقير التى أنزلها بهم ، وحصر الرسالة الثانية على وصيته لاهل بجاية

---

(١٧٧) اختلفت الروايات حول الشـخص الذى قام على قيـادة جيش الموحدين فى هذه المعركة . فيذكرها ابن الاثير تحت قيادة سعيد يخلف من اهـل خمسين ، بينما يؤكد البيذق أن الخليفة عبد المؤمن هو الذى قاد تلك الحملة . وفى هذا الصدد ، يذكر البيذق أن الجيش بأجمعه كان قد خرج لملاقاة العرب ، ولم يبق مع عبد المؤمن الا الخاصة من أهل الدار مع السوقة ، ومسـك القناة التى يمسكها من عام البحيرة (ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٦٠ . البيذق ، المصدر السابق ، ص ٧٥) .

وتعاليمه ليم المستمدة من تعاليم المهدى الدينية (١٧٨) • وبالربـــط بين موضوعى الرسالتين وما وقع فى تاريخ حملة بجاية من تصفيات للتمييـز بين صفوف الموحدين ، يظهر بوضوح أن الاعتقاد الخالص فى الاهـداف الموحدية لم تأخذ به أطراف مختلفة فى مقدمتها عرب البوادى • وأقتضى الامر ، مع تصفيات التمييز التى كانت تجرى للانصار القدامى ، العمـل على كسب مزيد من الانصار الجدد ومن ثم الاقدام على فتوح جديدة • وواضح فى حرب بجاية أن أحداثها انتهت بانتصار حاسم بالرغم مـــن مقاومة العرب • وواضح أيضا أن هذه الاحداث قد قدمت لعبد المؤمـن حديثا يسهل استهلاكه فى بلاده لصالح الدعوة الموحدية ، الامر الـــذى يسر له طريق العودة على رأس حملة ثانية فى اتجاه الشرق •

ج ـ الحملة على المهديـــة وبرقـــة :

فى ١٠ شوال عام ٥٥٣ هـ / أكتوبر ـ نوفمبر ١١٥٨ م خرج عبـد

---

(١٧٨) أوصت الرسالة بـــ : يأخذ الناس بعلم التوحيد الذى هو أساس الدين وتوجيههم الى قراءة العقيدة التى أولها « اعلم أرشدنا الله واياك » وحفظها وتفهمها . وشمل هذا الالزام النساء والرجال والاحرار والعبيد .

ـ اقامة الصلاة ، لان لاحظ فى الاسلام لمن ترك الصلاة ، فهو غير مثبت بديوان المؤمنين ، وتاركها ميت فى عداد الاحياء .

ـ ايتاء الزكاة ، ومن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة ، ومن منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها .

ـ النظر فى الربوب وتمييزها ، والهجوم على بائعها ، ومـــدمن شربها ، فيراق سكرها ، ويقطع منكرها ، فالخمر أم الكبائر ، وهى رجس من أعمـــال الشيطان .

ـ الكشوف عن التلصص والجراية ، كالاجتماع على سيرة الجاهلية ، الضلالة من الرجال المفسدين ، النساء المفسدات .

ويوصى أهل بجاية باتبـــاع تلك الفصـــول والضرب على أيدى هـــؤلاء المفســـدين . (ليفى بروفنسال ، المصدر السابق ، رقم ٢٣ ، سنة ٥٥٦هـ ، ص ١٢٦ ـ ١٣٨) .

المؤمن بن على من جديد فى جيوش ضخمة تلبية لطلب ولده عبد الله الذى انهزم فى تونس على أيدى بنى خراسان وعرب رباح ولاذ ببجاية • وأراد عبد المؤمن أن يحقق من هذه الحملة أمرين ، الاول الاستيلاء على تونس والمناطق الخارجة على سلطانه من قابس وقفصة وشط الجريد والاربس والتوسع شرقا الى طرابلس والثانى تحرير المهدية من سيطرة النورمان وكانت الثورة على الاحتلال النورماندى قد شملت مناطق عديدة من المغرب الادنى ابتداء من جربة ، وصفاقص على يد عمر بن أبى الحسن الذى أمر بقتل جميع النصارى فيها عام ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م (١٧٩) الى طرابلس على يد الشيخ ابو يحيى بن مطروح الذى أسر جمع الجالية النصرانية فيها فى عام ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، ثم مدينة قابس • وكان الموحدون قد استولوا على بجاية وبونة (عنابة الحالية) ، ولم يبق بأيدى النورمان غير مدينة المهدية (١٨٠) •

خرج عبد المؤمن من مراكش فى أوائل شوال ٥٥٣ هـ (نوفمبر ١١٥٨ م) قاصدا افريقية فى قوة كبيرة من أجناد الموحدين بالاضافة الى الاسطول • وكان قد أمن من بلاده أثناء غيبته فاستخلف ابنه أبا الحسن على على مراكش ، والشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتى على المهدية أو

---

(١٧٩) يذكر التجانى فى رحلته أن « الملك روجار الثانى ملك صقلية قد ولى عمر بن الحسن على صفاقص واخذ والده الشيخ أبا الحسن القريانى رهينة عنده لكى لا يحيد عمر عن طاعته ، ولكن الشيخ أبا الحسن قد أرسل سرا الى ابنه بأن ينتهز أول فرصة لتحطيم قوة النصارى ، ولا يهتم بمصير أبيه . وبخروج عمر بن الحسن على النصارى عمدوا الى شنق أبيه الشيخ وهو يتلو القرآن الكريم » ص ٧٥ . د. علام ، الدولة الموحدية ، ص ٢٠٨ .

(١٨٠) الحلل الموشية ، ص ١١٧ . ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١١ ص ٧٦—٧٧ ، ٩١ ، ٩٩ . انظر ايضا : أبو على أحمد بن عمر بن رسته ، الاعلاق النفسية ، ليدن ١٨٩١ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

رباط الفتح ، ويوسف بن سليمان على مدينة فاس ، أما فى الاندلس ، أقام عبد المؤمن ابنه أبا يعقوب على اشبيلية وترك معه فى حكمها عبد الله بن أبى حفص • كذلك قلد ابنه السيد أبا عثمان واليا على غرناطة ، وابن يخيت على قرطبة (١٨١) •

وواضح من حجم هذه الاستعدادات أن عبد المؤمن كان ينوى التغيب لفترة طويلة فى حملته الثانية فى اتجاه الشرق ، وان هدفها لم يكن مجرد السيطرة على تونس أو تحرير المهدية من السيطرة النورمندية وانما كان يعمل على ضم كل حواضر افريقية التى لم تتبع بعد الحكم الموحدى • وبدأ الحملة أحداثها بالوقوف أمام مدينة تونس ، فحاصرتها قواته البرية وأحاط بها الاسطول الموحدى بقيادة أبو عبد الله بن ميمون ثلاثة أيام • وطلب الموحدون من أهل تونس الدخول صلحا فى طاعتهم ولكن واليها أحمد بن خراسان الذى أستقل بها لم يرضخ لطلبه • فبدأ الموحدون يهاجمون المدينة ، وعندما أقبل الليل أقبلت فئة من أعيانها تطلب الامان ، فأجيبوا الى طلبهم على أساس الامان فى أنفسهم ، وأهليهم فقط ، أما الاموال والاملاك فالنصف بينهم وبين الموحدين (١٨٢) • أما النصارى واليهود فقد خيروا بين الدخول فى الاسلام أو القتل ، فدخلوا فى الاسلام •وهكذا دخل الموحدون المدينة فى جمادى الاولى من سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م)وترك عبد المؤمن عليها جيشا من الموحدين •

ثم زحفت جيوش عبد المؤمن الى المهدية ، وأستعدت لمواجهة

---

(١٨١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٣ ، ص ٣٨ . أنظر ، د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٩٠ — ٧٩١ .

(١٨٢) علام ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨—٢٠٩ .

النورمان وكان عبد المؤمن موقنا بطول أمد الحصار بسبب مناعـــــة المهدية (١٨٣) . وكانت المدينة تتلقى الامدادات من صقلية عن طريق البحر وعلى هذا النحو امتد الحصار برا وبحرا مدة سبعة شهور تخللتها هجمات بالمجانيق والعدد وأنقطعت المدادات صقلية عنها لوجود أسطول الموحدين حتى استسلمت المدينة بعد أن آمن حاميتها على أن يخرجوا الى صقليـة وتم دخول المهدية فى سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) (١٨٤) .

وفى أثناء حصاره للمهدية جاءته الاخبار بأن عرب سليم تعـــدوا بشدة على مدينة قابس ، فخاطبهم بشعر من قول القاضى بن عمـــران يقول فيـــه :

أسليم دعـــوة ذى أخـــا مرشـــد
هـــاد الى الحـــق المبيـــن المسعـــد
ومـــذكر ما كـــان أســـلاف لكم
فضلوا بـــه أفعـــال كـــل مســـدد
بجهـــاد أعـــداء الالـــه ونصرهم
لرســـول ربهم النبى محمـــد
وتعرضـــوا أنـــا عليكم صـــبر
حتى يعـــود جواب هذا المنشد (١٨٥)

---

(١٨٣) المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٨ . مجهول ، الحلل ، تحقيق ، د. سهيل زكار ، والاستاذ عبد القادر زمامة ، الرباط ، ١٩٧٩ ، ص ١٥٤ .

(١٨٤) المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٨—١٤٩ . الحلل الموشية ، ص ١١٧—١١٨ . ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ٣٩ . ولم يقتل من الموحدين فى استرجاع المهدية سوى ابن بكيت (البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٨٠) .

(١٨٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٣٩ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ١٧٥—١٧٦ .

وأردف الرسالة التى لم يصل رد لها بتجريد عساكره على قـــابس بقيادة ولده عبد الله ، وتمكن من الانتصار عليهم وكتب الى الموحديـــن بفاس يبشرهم بالانتصار والفتح وجاء فى رسالته : « •• وببلاد افريقية للقبيل الرياحى المستولى على أقطارها ، المستعجل فى اضرارها . لا ذكـــر يسمع ولا حديث يرفع ، ولا أثر يتقصى ويتتبع ، ألحقوا بقبيل العـــدم ، وقلعوا قلع الصمغة وعصبوا عصب السلم ، وأصبحوا كهشيم التهبتـــه نفحة ضرم ، حيزت عليهم الثنايا والانقاب ، وتبسط فيهم كيف شـــاء العقاب •• حقت عليهم الصيحة فأثارتهم هبا منثورا وضربت عليهم الذلة بكل مضطرب وملتمس » • وفى موضع آخر تقول الرسالة عن عـــرب بنى سليم : « وكان فى هذا القبيل الرياحى فخذ منهم يعرف ببنى محمد لاحظتهم السعادة بطرف غير حض وأحتضنتهم فى حجر الوقاية حض ، وكـــان لهم من القدر السابق بمغازتهم جد كفيل كفى ، فألقوا بمقاليد الانقيـــاد ، وأنخرطوا فى سلك أهل التوحيد بجميع الانف والاموال والاولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مصافرة الغزو ومصابرة الجهاد • وأن عمـــاد بيتها وزعيم أمرها أبا يعقوب يوسف بن مالك » (١٨٦)

وعن عرب جشم تستطرد الرسالة : « وهم عدد لا يحمله الا البساط الفياح والفضاء المنداح • وكل من هذين الحيين الجشمى والفخذ المحمدى من الرياحى فقد عزم وأعزم به على أن تحتط ان شاء الله بالمغرب دارهم ، ويبوأ هنا لكم قرارهم ، ويقصر على خدمة هذا الامر العزيز جوارهم » •

---

(١٨٦) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٢١ ، وهى من انشـــاء الكاتب ابى القاسم القالمى ، كتبت فى متيجة فى ٢٤ ربيع الثانى ســـنة ٥٥٥هـ يعلمهم بهزيمة عرب افريقية ودخولهم تحت طاعة الموحدين ، ص ١١٣—١٢١ • انظر أيضا : ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ •

وعن قبائل الاثيج وزغبة ، فقد وصل اليه أيضا أعيانهم « يمدون يد الاستتابة ، ويطلقون ألسنة الانابة » (١٨٧) .

وهكذا أسفرت معارك عبد المؤمن فى افريقية عن تحرير المهدية من قبضة النورمان وأنتزاع تونس والقيروان وقفصة وطبرق والاربس وطرابلس وسوسة وصفاقص (١٨٨) .

وواضح مما ورد فى احداث فتح المهدية أنه تم صلحا مع أستئمان النصارى ودخل عبد المؤمن مدينة المهدية فى يوم عاشوراء من محرم سنة ٥٥٥ هـ / ٢١ يناير ١١٦٠ م ، وهى المعروفة بسنة الاخماس . وتوالت عليه التهانى بذلك الفتح ، وقيل فيها قصائد المديح التى جاء من بينها ما بلى من الابيات :

وأشرقت الشمس المنيرة فوقنا
وأصبح وجه الحق غير محجب
وطهر هذا الصقع من كل كافر
وعاد به الاسلام بعد تغلب
وكسرت الصلبان فى كل بيعة
ونادى منادى الحق فى كل مرقب

---

(١٨٧) ليفى بروفنسال ، نفس المصدر .

(١٨٨) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٩٨ . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٤٩٤ ، أنظر أيضا عن الوفود التى وفدت على عبد المؤمن من تلك البلاد : وفد صفاقس : عمر بن أبى الحسن الغربانى ، طرابلس : ابن مطروح شيخ طرابلس ، قفصة : يحيى بن تميم ابن المعتز ابن الرند ، بنزرت : عيسى بن مقرب بن مراد بن الورد اللخمى . الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٢ .

فأبشـــر أبـــا حفص بنصر مـــؤزر
كفيـــل بما تبغيه فى كـــل مـــذهب
ولابـــد مـــن يـــوم أعـــز محجـــل
يسيل دمـــاء الكفر فى كـــل مـــذنب
ويغـــزو بـــلاد الـــروم جيش عرمـــرم
بخيل مـــن قبس وأبناء يعـــرب (١٨٩)

وبخضوع افريقية وطرابلس امتد سلطان الموحدين من برقة حتـــى المغرب الاقصى ، وعمل عبد المؤمن على ضبط ثغورها واصلاح أقطارهـــا وتعيين عماله وقضاته عليها ، بل عمل على تكسير أراضيها حتى بلاد نول فى السوس الاقصى بالفراسخ والاميال طولا وعرضا وأسقط منه الثلث فى الجبال والانهار والسباخ والطرقات والحرمون والشعراء وما بقى قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق (١٩٠) .

وبعد أن أقام بالمهدية مدة ٢٠ يوم ، عاد الى مراكش (١٩١) مـــع سادة العرب وأولادهم ، لمتابعة اخضاعه لابن مردنيش فى شرق الاندلس حيث أقام مدة عامين خرج بعدها الى بلاد الاندلس .

---

(١٨٩) ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ٤١ . ارجع الى القصائد الاخرى التى قيلت فى مدح عبد المؤمن لفتح المهدية وبلاد افريقية ص ٤٥ ، قول أبو بكر بن منخل ، قول ابن صاحب الصلاة ، وقـــول أبو العباس الجـــراوى ، ص ٤٦ — ٤٨ .

(٦) د. سالم : المغرب الكبير ، طبعة ١٩٦٦ ، ص ٧٩٤ .

(١٩٠) ابن ابى زرع ، القرطاس ، ص ٩٩ .

(١٩١) مجهول ، الحلل ، ص ١٢٥ .